العدد ٢٥ ، ١٩٧٠

مجلة الشؤون السوفيتية

يصدرها

معهد دراسة الشؤون السوفيتية

في ميونيخ ، المانيا الغربية

محتويات العدد

ستالين – هل كان جباراً متسلطاً أم قائداً يواجه المسئولية؟

تفسير جديد للتعايش السلمى

ملابسات عزل ثلاثة من قادة الحزب فى الجمهوريات الاتحادية

الكتّاب السوفييت فى النضال من أجل حرية الفكر

عرض وتحليل لأهم الأحداث

العدد ٢٥ ، ١٩٧٠

مجلة الشؤون السوفيتية

يصدرها

معهد دراسة الشؤون السوفيتية

في ميونيخ ، المانيا الغربية

محتويات العدد

ستالين - هل كان جباراً متسلطاً أم قائداً يواجه المسئولية؟

تفسير جديد للتعايش السلمى

ملابسات عزل ثلاثة من قادة الحزب فى الجمهوريات الاتحادية

الكتّاب السوفييت فى النضال من أجل حرية الفكر

عرض وتحليل لأهم الأحداث

(المجلة) نشرة دورية يصدرها معهد دراسة الشئون السوفييتية فى مدينة ميونيخ بألمانيا الغربية مرة كل ثلاثة أشهر، فإذا رغبت أيها القارىء الكريم فارسل بمقالاتك وبحوثك المختلفة إلى رئيس تحرير المجلة أما الاعلانات والاشتراكات وكذلك الواردات الأخرى فترسل الى مدير المعهد على العنوان المذكور أدناه.

كما يسر رئيس التحرير ان يقوم بنشر المقالات التى ترسل إليه إذا اعتبرها صالحة للنشر ويدفع أجر المقالات التى تنشر حسب تعريفة المعهد فى هذا الشأن، أما المقالات التى لا تنشر فتعاد الى كاتبها عند طلبه، والمرجو من كاتبى المقالات ان يحتفظوا بنسخة لديهم حيث ان المعهد غير مسئول عن ضياع الأصل.

يمكن اعادة أو اقتباس المواد فى "المجلة" جزئياً بشرط الاشارة الى مصدرها. ويرجو رئيس التحرير ان يتسلم دائماً نسخة من المنشورات التى احتوت على معلومات أو مواد نشرت فى "المجلة" من قبل، كما يرجو أيضاً الحصول على اذنه قبل اعادة نشر مقالات بأكلها.

الآراء المنشورة فى "المجلة" أو فى مطبوعات أخرى للمعهد تعبر عن آراء كتابها فقط ولا يجوز اعتبارها وجهة نظر المعهد: Institute for the Study of the USSR,
.8 Munich 22 — Mannhardtstrasse 6 — Germany

Bulletin .... DM 24.— or $6	
(in English, 12 issues per year)	
Studies on the Soviet Union ...... DM 24.— or $6	
(in English, 4 issues per year)	
Analysis of Current Developments in the Soviet Union (mimeographed)	
(in English, 40 issues per year)	DM 40.— or $10
(in Russian, 40 issues per year)	DM 40.— or $10
(in Spanish, 20 issues per year)	DM 20.— or $5
Review of Soviet Medical Sciences (in English, 2 issues per year)	DM 16.— or $4
Dergi (in Turkish, 4 issues per year)	DM 4.— or $1
Estudios sobre la Unión Soviética (in Spanish, 4 issues per year)	DM 4.— or $1
Majallah (in Arabic, 4 issues per year)	DM 4.— or $1
Problèmes Soviétiques (in French, 2 issues per year)	DM 8.— or $2
Sowjetstudien (in German, 2 issues per year)	DM 8.— or $2

For Air Mail Delivery, please double the rate. — All rates subject to change without notice.

Herausgeber und Verlag: Institut zur Erforschung der UdSSR, e.V., München 22, Mannhardtstrasse 6, Telefon 22 06 81-84. — Printed in Germany by Wiesbadener Graphische Betriebe GmbH, Wiesbaden.

مجلة

الشؤون السوفيتية

العدد ٢٥

رئيس التحرير

سليمان محمد تكينر

معهد

دراسة شؤون الاتحاد السوفيتي — ميونيخ

محتويات العـدد

ستالين – هل كـان جباراً متسلطاً أم قائداً يواجه المسئولية ؟ ٣
بقلم: هـ. اخمينوف

تفسير جديد للتعايش السلمى ٢١
بقلم: ب. كروجين

ملابسات عزل ثلاثة من قادة الحزب فى الجمهوريات الاتحادية ٢٦
بقلم: سليمان تكينر

الكتاب السوفييت فى النضال من أجل حرية الفكر. ٣٨
بقلم: يورى مارين

عرض وتحليل لأهم الأحداث ٥١

ستالين ــ هل كان جباراً متسلطاً أم قائداً يواجه المسئولية؟

«بمناسبة الذكرى التسعين لميلاده»

بقلم: هـ. اخمينوف

منذ أن كان "دور الفرد فى التاريخ" موضوعاً للمناقشة، وهناك رأيان بارزان فى شأنه: أولهما أن الخلق الشخصى يتحكم بدرجة كبيرة فى تصرفات الشخصية التاريخية، وهذا الخلق الشخصى غالباً ما يتأثر بالصفات البدنية الخاصة. والرأى الآخر يقول ان الضرورات التاريخية الموضوعية، هى التى تلعب الدور الأساسى، وان الأهواء والأذواق الشخصية قليلة الأهمية. ولقد أخذ مستر روبرت باين فى كتابه عن ستالين بالرأى الأول، أما كاتب مقالتنا هذه مستر هرمان اخمينوف، فقد أخذ بالرأى الآخر.

لم يكن ستالين كانسان موضوعاً للدراسة أثناء حياته، فقد كان ينظر إليه أولا وقبل كل شىء، على أنه تجسيد لنظام سياسى، هو النظام الشيوعى السوفييتى الذى كان يعنى فى الحقيقة، الشيوعية عموماً.

وبعد وفاة ستالين، كانت هناك جهود متزايدة لنسب جميع المظاهر السلبية فى عصره الى الخلق الشخصى للدكتاتور البائد. وقيل أنه لو لم يكن ستالين بهذه الصفات التى كان عليها، لتغير كل شىء بل لما كانت الشيوعية بهذه الصورة التى صنعها هو. وحتى يمكن تبرير هذه النظرة كان لا بد من تصوير ستالين كدكتاتور متعطش للدماء ما ان تمكنت يديه حتى سار يقتل ويسفك الدماء.

ويقيم الكاتب الأمريكى روبرت باين وزناً كبيراً "لعبادة الذات" ويستند إليها إستناداً كبيراً فى تفسير الستالينية، وخصص ١٦٧ صفحة فى كتابه عن ستالين لاثبات ان مفتاح فهم الستالينية يقع عند عوامل مثل ان ذراع ستالين الأيسر كانت به عاهة

خفيفة، ويقول عنها باين انها "ربما كان لها أثر عميق فى خلقه الظاهر"(١) وعن اجراميته المرضية قبل كل شيء. ثم يقول باين:

يوجد احساس بأن المحاكمات التى هزت روسيا بأجمعها فى الثلاثينات، لم تكن أكثر من قربان لارضاء شهوة الشيطان ستالين. . . ولو ان ستالين كان قد قضى الثلاثينات وحيداً فى زنزانة فى مصحة للمجانين، لاستمر فى القتل تحت أثر لوثة الهدم التى انتابته، ولكان قد قتل النمل لو لم يجد شيئاً آخر ليقتله. وإذا لم يبق كائن حى فى الزنزانة، لكان قد رسم شخوصاً على الحائط ثم إزالهم(٢).

وباين ليس هو الوحيد فى هذا الرأى، فالرأى القائل بأن خلق ستالين هو المسئول عما يعرف بالستالينية، يشارك فيه عدد كبير من الكتاب، وعلى سبيل المثال، إليك نوفى فى مقالته "هل كان ستالين ضرورياً حقاً؟"(٣). ولكن خروشتشوف كان على الأرجح، أول من فرق بين ستالين الانسان وستالين الشيوعى فى خطبته "السرية" أمام المؤتمر العام العشرين للحزب فى أوائل عام ١٩٥٦. فقد حاول ان يلقى المسئولية الكاملة عن الجرائم التى ارتكبت فى عصر ستالين عليه شخصياً، مستشهداً "بوصية" لينين التى عبر فيها عن شكه فيما إذا كان ستالين يمكن ان يكون حذراً بالقدر الكافى عند مزاولة السلطة، والتى تحدث فيها عن "خلق ستالين الهوائى الاستبدادى"(٤). ولكن الاتهامات التى وجهها خروشتشوف الى ستالين، وهى أخطر بكثير، تسرى فقط على الفترة التى تلت المؤتمر العام السابع عشر للحزب فى فبراير (شباط) ١٩٣٤:

بينما كان ستالين لا يزال يساءل عن فكرة الجماعية أمام المؤتمر السابع عشر، وبعد ان تمت تصفية التروتسكيين والزينوفيفيين والبوخارينيين تماماً. . . فانه لم يبد أى قدر أكبر من الاعتبار نحو أعضاء اللجنة المركزية للحزب، وحتى أعضاء المكتب السياسى(٥).

ويستطرد خروشتشوف:

. . . وبعد الحرب، صارت الحالة أكثر تعقيداً. وصار ستالين أكثر هوائية وانفعالية ووحشية. وزادت شكوكه بنوع خاص. وبلغ جنون الاضطهاد عنده

---

(١) روبرت باين، "ارتفاع وسقوط ستالين"، نيويورك، ١٩٦٥، ص ٣٦.
(٢) المرجع السابق، ص ٥٠٩.
(٣) "دير مونات" برلين، الغربية، مارس (آذار) ١٩٦٣.
(٤) بوريس ا. نيكولايفسكى (رئيس تحرير)، "جرائم العصر الستالينى": تقرير خاص الى المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى للاتحاد السوفييتى من نيكيتا س. خروشتشوف، نشرته "ذانيوليدر"، نيويورك، ١٩٦٢، ص ١٣.
(٥) المرجع السابق، ص ٢١.

حداً لا يصدقه العقل . . وأصبح كثير من العمال (المواطنين) فى عينيه أعداء "(٦).

ثم يضيف :

استغل ستالين هذا الشك الذى لا يصدقه العقل، باستخدام مهارة الدساس الدنىء بيريا، العدو الخسيس الذى قتل ألوفاً من الشيوعيين ومن أبناء الشعب السوفييتى الأوفياء(٧) .

وكما يقول خروشتشوف، فان العجوز ستالين قد سمح لنفسه بان يقع فى شباك الفخ الذى نصبه بيريا " وعصابته " . وليس من الصعب على المرء ان يتبين من ان اتجاه " ازالة الستالينية " هذا، ومن ان التباين بين ستالين وبين " الادارة الحقيقية " للحزب، قد قدما لخروشتشوف مزايا تكتيكية واستراتيجية هامة .

فقبل كل شىء، كان من المستحيل إيقاف تيار " رد الاعتبارات " الذى تدفق فى أعقاب عزل بيريا ثم اعدامه . وكنتيجة حتمية لذلك، كان من المستحيل أيضاً تحاشى مناقشة الجرائم التى ارتكبت خلال حكم ستالين. ومن ناحية أخرى، فقد كان على خروشتشوف ان يبرىء ذمته من تلك الجرائم . وعلى ذلك فلم يكن أمامه خيار سوى ان يتولى قيادة حملة " ازالة الستالينية "، والتى بينما هى تمكنه من " حشد قوة سياسية " حوله، فانها فى الوقت نفسه ينبغى ان تتم فى أضيق الحدود، خشية الأضرار بمصالحه الشخصية أو بالحزب عامة .

وهكذا فقد جاء خروشتشوف الى المؤتمر العشرين للحزب، يذكر مستمعيه بان لينين حين طلب استبدال ستالين بآخر فى منصب سكرتير عام الحزب، فقد أوضح ان خلفه يجب ان " يختلف عن ستالين فى ناحية واحدة فقط، وهى ان يكون أكثر تسامحاً ووفاءاً وأكثر بشاشة ومراعاة للرفاق، وأقل هوائية ونحو ذلك "(٨) . وبهذا فان خروشتشوف عن طريق منح وصية لينين هذا الاعتراف الرسمى، وبكشفه جرائم ستالين، فانه قد أظهر ورفع راية لينين (ألم يكن مؤسس الحزب عارفاً بتلك الصفات الخطرة فى خلق ستالين منذ عام ١٩٢٢ ؟) . وعن طريق " ازالته للستالينية " فقد دلل خروشتشوف على أنه لو كان لينين حياً، لعينه هو خلفاً له على أساس أنه يختلف عن ستالين (الذى كان خروشتشوف ملاصقاً له فى العمل) لا فى عقيدته السياسية، ولكن فى " خلقه الانسانى" .

---

(٦) المرجع السابق، صفحات ٤٥–٤٦ .

(٧) المرجع السابق، ص ٤٦ .

(٨) ف. ا. لينين، "سوتشينينا" (أعمال لينين)، الطبعة ٤، مجلد ٣٦، موسكو، ١٩٥٧، ص ٥٤٦ .

والتوقيت الذى يعطيه خروشتشوف "لنقط الانقلاب" المزعومة فى تطور شخصية ستالين، يتفق تماماً، ولا غرابة فى ذلك، مع أغراضه (أغراض خروشتشوف). فعندما قال ان "عبادة الذات" عند ستالين ظهرت فقط بعد ١٩٣٤، وهى السنة التى انتخب فيها خروشتشوف لعضوية اللجنة المركزية، فقد أراد بذلك ان يدلل على ان انتخابه كان حراً تماماً ولم يكن فضلا من ستالين. ثم ان اشارته الى تطورات ما بعد الحرب فى شخصية ستالين، كان قصده منها اعطاء "ايضاح" للسبب الذى جعله هو خروشتشوف، حتى وهو عضو فى المكتب السياسى، غير قادر على معالجة الحالة.

وهناك من ينسون إن الصورة التى رسمها خروشتشوف لستالين كاحد الشخصيات فى تاريخ الحزب (فى خطبته السرية)، كانت صورة إيجابية بوجه عام. فقد قال مثلا:

اننا نعتبر ان ستالين قد مُجد الى أبعد الحدود. ولكنا ينبغى الا ننسى أنه أدى فى الماضى خدمات جليلة للحزب وللطبقة العاملة ولحركة العمال الدولية بلا شك(٩).

ثم يزيد على ذلك:

(ستالين) رأى هذا (القمع) من زاوية مصالح الطبقة العاملة ومصالح الشعب العامل ومصالح نصرة الاشتراكية والشيوعية. اننا لا نستطيع ان نقول ان هذه كانت مآثر دكتاتور مستبد مات. فقد كان يرى ان هذا لا بد ان يحدث لمصلحة الحزب والجماهير الكادحة، وباسم حماية مكاسب الثورة. وفى هذا تقع المأساة كلها ! (١٠).

ومع ان باين يصور ستالين كمجنون وقاتل معتوه، بينما نفى خروشتشوف ان ستالين كان "مستبداً طاغية"، فكلاهما قد اتفقا على ان "عملية التطهير الكبير" لم تكن ضرورية.

فخروشتشوف يقول:

يلزم لفت النظر هنا الى أنه لم يكن هناك داع دائماً لاعدام أولئك الأشخاص الذين عارضوا سياسة الحزب(١١).

ويقول باين:

لقد تخيل (ستالين) نفسه محاطاً باعداء. وأخذ يضرب ضرباً أعمى. وحيث ان هؤلاء الأعداء الخياليين الوهميين قد ازدادوا عدداً وتكاثروا، لأنهم حملوا

---

(٩) المرجع السابق، ص ٦٣.
(١٠) المرجع السابق، صفحات ٦٣–٦٤.
(١١) المرجع السابق، ص ١٤.

وزره هو، فقد سار يبطش بالناس ويضرب يمنه ويسرى مزيداً من عنفه وبطشه وتهوره(١٢).

ولكن بينما اتهم خروشتشوف ستالين باستخدام الرعب فى حالات لم تكن ضرورية لمصالح الماركسية اللينينية، فان باين يقرر ان:

ان الأهوال التى أوقعها (ستالين) على أمته ليس لها علاقة مع النظرية الماركسية.

ومن الغرابة أنه كان يجهل ذلك. انها تنبعث من اجراميته التى لم يسبق لها مثيل، ومن عدميته التى ابتلاه بها القدر، وقساوة قلبه التى اعتاد عليها والتى تضعه خارج مصاف الانسانية(١٣).

وهذا يطرح أمامنا سؤالين، ينبغى الاجابة عليها، عن العلاقة بين ستالين الانسان، وستالين رجل الحكومة المسئول – أى بمعنى أنه، هل كانت قرارات ستالين الاستراتيجية الأساسية تتفق مع مبادىء الماركسية اللينينية؟ وهل كانت توجد هناك أى إمكانية حقيقية خلال الفترة ١٩٢٧–١٩٥٣ لتنفيذ هذه القرارات بدون استخدام الرعب والارهاب؟

يوجد فى حياة ستالين عدد من "نقط الانقلاب"، منها أربعة يجب ان توضع فى موضع الاعتبار على انها ذات أهمية حاسمة بالنسبة لمحاولات كشف النقاب عن ستالين كسياسى. وهذه النقط الأربعة هى:

١– تعيينه سكرتيراً عاماً للجنة المركزية للحزب فى ٣ أبريل (نيسان) عام ١٩٢٢.

٢– اقرار المؤتمر العام الرابع عشر للحزب فى ديسمبر (كانون الأول) ١٩٢٥ برنامج التصنيع، أى برنامج "بناء الاشتراكية فى بلد واحد".

٣– تنفيذ "ثورة البلشفيك الثانية"، أى تنفيذ الجماعية فى الزراعة وتصفية "الكولاك" (ملاك الأراضى) كطبقة، وهو الأمر الذى جاء مباشرة فى عقب الانتصار على المعارضة "اليسارية" ونفى تروتسكى فى ١٨ يناير (كانون الثانى) ١٩٢٩ الى خارج البلاد.

٤– "التطهير الكبير" الذى أشار به ستالين فى خطبته أمام الاجتماع العام للجنة المركزية للحزب فى ٣ مارس (آذار) ١٩٣٧.

ان ما جاء فى وصية لينين من نقد بخصوص ستالين، يميل الى أضفاء شىء من الابهام والغموض على حقيقة ان تعيين ستالين فى منصب السكرتير العام كان وفقاً لرغبة لينين

---

(١٢) باين، المذكور سابقاً، ص ٥٠٩.

(١٣) المرجع السابق، ص ١٧.

الشخصية، وان لينين نفسه احتج بشدة على تركيز السلطة فى يدى ستالين. فمثلا اعترض فى ٢٨ مارس (آذار) ١٩٢٢ أى قبل ذلك التعيين بأيام قلائل، ى. ا. بريوبراجينسكى على قيام ستالين بوظائف قوميسير القوميات، وقوميسير تفتيش العمال والفلاحين فى نفس الوقت، فرد عليه لينين بالاجابة التالية :

ماذا يمكن ان نفعل لتأمين الأوضاع القائمة فى قوميسارية الشعب لشئون القوميات، وحتى نصل الى تكافىء ما مع كل هؤلاء التركستانيين والقوقازيين ولايجاد حلول لقضايا أخرى شبيهة ؟ ان كل هذه مسائل سياسية، فتذكر أيها الرفيق . . .

اننا فى طريق حلها، ولأجل ذلك فنحن فى حاجة الى رجل يمكن ان يذهب إليه أى من مندوبى القوميات ليفضى إليه بمشكلته فاين يمكن ان نجده ؟ فحتى بريوبراجينسكى، كما اعتقد، لم يستطع ان يعطى اسم أى مرشح آخر غير الرفيق ستالين .

ونفس الشىء ينطبق على تفتيش العمال والفلاحين . انها مهمة عسيرة ولكى نرقى الى مستوى عمل التفتيش، فسوف نحتاج الى رجل له سلطة حتى القمة، والا سوف نجد أنفسنا غارقين فى دسائس حقيرة(١٤) .

وبعد ذلك بستة أيام، استلم ستالين منصب السكرتير العام الذى احتفظ به بقية عمره . وظل قوميسيرا لتفتيش العمال والفلاحين حتى ٢٥ ابريل (نيسان) ١٩٢٢، وقوميسيرا للشعب لشئون القوميات حتى يوليو (تموز) ١٩٢٣، وبعد ذلك تفرغ بكل طاقاته لأعمال الحزب.

وهكذا، فمن الجائز القول بأن لينين قد "صنع" ستالين. ولكن الحقيقة ان لينين حين حل به المرض تكونت لديه آراء أخرى بشأن "صنيعته" . وكانت هذه فى حد ذاتها مأساة شخصية بالنسبة للينين فوق ما لها من أهمية سياسية . ومن المؤكد ان الدراسة الدقيقة لوصية لينين، تكشف عن أنه لم يكن هناك فى عام ١٩٢٢ شخص من بين أعضاء اللجنة المركزية أقرب الى لينين أيديولوجياً وسياسياً من ستالين . فقد ذكر لينين مثلا، ان "أحداث أكتوبر" السابقة على الثورة مباشرة، حين أفشى كامينيف وزينوفيف، اللذان تزعما المعارضة اليسارية فيما بعد، سر قرار اللجنة المركزية بالاعداد لثورة مسلحة، هذه الأحداث "لم تكن على سبيل الصدفة". وكذلك فان "انحراف تروتسكى عن البلشفية" لم يكن هو الآخر من باب المصادفة . وبالنسبة لبورخارين، فقد قال عنه لينين "يوجد شك

---

(١٤) أعمال لينين، المذكور سابقاً، مجلد ٣٣، ١٩٥٠، صفحات ٢٨١–٢٨٢ .

كبير جداً فيما إذا كانت آرائه النظرية يمكن ان توضع فى مصاف الماركسية . . . انه لم يدرس بتاتاً، وأظن انه لم يفهم الجدلية فهماً كاملا فى يوم من الأيام " . وبياتاكوف كان مهتماً بالميل نحو " الجانب الادارى للأشياء " . ولم يسلم فرد من تلك الجماعة من أى نقد سياسى أو أيديولوجى سوى ستالين . وكل ما لاحظه لينين على ستالين هو أنه ذو خلق سيء ، من حيث أنه كان " فظاً وخشناً جداً، وهو العيب الذى يمكن التغاضى عنه فى علاقاتنا ببعضنا نحن الشيوعيين، ولكن لا يمكن اغفال النظر عنه بالنسبة لمنصب السكرتير العام "(١٥). ومن ثم فان لينين قد اقترح لهذا السبب وليس لأسباب أيديولوجية عزل ستالين عن " بناء الاشتراكية فى بلد واحد " . أما نظرية تروتسكى العكسية عن " الثورة الدائمة " فهى تنحدر من التفسير الخاطىء لماركس وانجلز "خطاب اللجنة المركزية الى رابطة الشيوعيين" فى مارس (آذار) ١٩٥٠ . ولكن أبوا الماركسية ومؤسساها كانا قد عادا وقدما شرحاً فى سبتمبر (أيلول) ١٨٥٢ خاصاً بإبطال مفهوم الحركة الثورية، فقالا أنهما فهما ان " الثورة الدائمة " عملية متواصلة من " الحروب الأهلية والصدامات الدولية " يمكن ان تستمر لمدة عشر أو خمسة عشر أو عشرين بل خمسين سنة . وأهم ما فى الأمر ان ماركس وانجلز، بكل وضوح وجلاء، لا يوافقان على " القرارات الادارية "، مثل تلك التى تتخذ عند اندلاع ثورة ما ، فى حين ان مسبباتها ومقوماتها غير متوفرة . ولكن تروتسكى كان ينادى بمثل تلك السياسة(١٦). وكذلك فقد كتب لينين أيضاً فى مقالة بعنوان " النداء بولايات متحدة أوروبية " نشرت فى أغسطس (آب) ١٩١٥ ، فقال أنه يرى ان " انتصار الاشتراكية ممكن مبدئياً فى عدد قليل أو حتى فى بلد واحد من البلاد الرأسمالية(١٧) .

ثانياً، ان تحالف ستالين مع من أصبحوا فيما بعد المعارضة " اليمينية "، ضد تروتسكى والمعارضة " اليسارية "، ثم تحوله المفاجىء نحو " اليسار"، بعد انتصاره على تروتسكى ومجموعته ، يتفقان كلاهما تمام الاتفاق مع مبادىء الاستراتيجية الشيوعية، ومع منطق الأحداث. فان كلا هذين التصرفين من ستالين يشكلان تطبيقاً عملياً لنظرية لينين عن " الحلقة الحاسمة " التى تقول ان البلشفيك يجب عليهم دائماً ان يركزوا قواهم على نقطة واحدة فاصلة، وان يتساهلوا لحين مع أولئك الذين قد ينبغى قتالهم فيما بعد .

---

(١٥) المرجع السابق، مجلد ٣٦، ص ٥٤٥ .
(١٦) كارل ماركس وفريدريش انجلز ، "أعمال"، مجلد ٨، برلين، ١٩٦٠، ص ٤١٢ .
(١٧) أعمال لينين، المذكورة سابقاً، مجلد ٢١، ١٩٥٢، ص ٣١١ .

ثم قرار ستالين الاستراتيجى الثالث بالبدء فى تنفيذ الجماعية فى الريف عنوة، كان هو الآخر متفقاً بالكامل مع مبادىء الماركسية اللينينية . وبقدر ما يمكن الحكم به، على أساس المعلومات المتاحة عن هذا الموضوع ، فقد كان هذا القرار هو الوحيد الذى كان باستطاعة ستالين اتخاذه فى مثل تلك الظروف .

فى عام ١٩٢٩، كانت اللجنة المركزية تتكون أساساً من المدافعين عن فكرة بناء الاشتراكية فى بلد واحد، وهى الفكرة التى فهمها الجميع على انها تعنى : التصنيع، وتصفية الملكية الخاصة للأرض . ولم يكن هناك خلاف حول هذا الأمر الا فيما يختص بمعدل تنفيذ عملية التصنيع ، والأساليب التى ينبغى اتباعها فى تنفيذ عملية تصفية الملكية الخاصة . وفى هذا الوقت وافق " اليمين" بزعامة بوخارين مع ستالين وأنصاره على أنه فى حالة عدم توفر موارد أخرى لتمويل عملية التصنيع ، فلا بد من تمويلها عن طريق " امتصاص " أرباح الزراعة . وكان السؤال الوحيد هو : كم ؟ فبوخارين فى مقالة له بعنوان " ملحوظات رجل اقتصاد " نشرت فى ٣٠ سبتمبر (أيلول) ١٩٢٨ يقول :

ان معارضى التصنيع يقفون ضد الاستيلاء ولو على الجزء الفائض من أرباح الانتاج الزراعى. أى أنهم ضد أى " امتصاص " من هذا القبيل . ولكن فى هذه الحالة فسوف تهبط سرعة عملية التصنيع . والتروتسكيون يحددون حجم " الامتصاص" بقدر " ما يمكن تنفيذه تكنيكياً " أى بأكمله . . . وهنا ، تقع الحقيقة فى مكان ما بين الأمرين . . . (١٨) .

ولكن تلك المقالة كانت قد ظهرت بعد ابعاد تروتسكى الى الما اته بثمانية شهور، وبعد نفيه من البلاد بأربعة شهور. وكانت المعارضة " اليسارية " قد تم سحقها، ولم يكن بوخارين يعنى بكلمة " التروتسكيين" فى الحقيقة سوى " الستالينيين" الذين كانوا قد اتجهوا نحو " اليسار" . ولم يكن بوخارين بقادر على ان يقدم شيئاً أكثر من قوله ان الحل الصحيح يقع " فى مكان ما بين الأمرين " أى بين وجهتى النظر المتعارضتين وأنه بدون ان يخفض معدل السير فى التصنيع ، فمن الواجب ان يكون نهب الفلاحين بدرجة أقل . ومع ذلك فقد كان لتنفيذ الجماعية فى الزراعة تلك الأثار المروعة التى كانت كارثة فى أول أمرها . اما بالنسبة للفلاحين فقد رفضوا بعناد فكرة الجماعية من أساسها .

---

(١٨) روبرت ف. دانيلز، "التاريخ التسجيلى للشيوعية"، مجلد ١، نيويورك ١٩٦٠، ص ٣١٥ .

ولكن ليس هناك ما يدعو الى الظن بأن مقاومتهم كانت ستستطيع احداث أى اصداء. وبوخارين كرئيس للحزب وقتذاك، وكشيوعى، فلم يكن باستطاعته ان ينبذ فكرة الجماعية.

وعند هذه النقطة، فقد يكون من الواجب لفت الأنظار الى بعض الظروف الاجتماعية التى كانت تواجه ستالين. ففى عام ١٩٢٧، كان ما لا يقل عن ٨٥ بالمئة من عدد أعضاء الحزب البالغ وقتئذ ١ ١٥٠ ٠٠٠، تقل أعمارهم عن ٤٠ سنة، وكان ٧٣ بالمئة منهم تقل أعمارهم عن ٣٥ سنة، وكان ٢٥,٣ بالمئة تقل أعمارهم عن ٢٥ سنة. وكانت نسبة عدد الأعضاء الذين التحقوا بالحزب بعد وفاة لينين تبلغ ٥٩ بالمئة من مجموع عدد أعضاء الحزب(١٩). وهذا يعنى ان الحزب كان يتكون أساساً من الشبان رجالا ونساءاً المتدفقين بالنشاط والحيوية والطامحين فى بلوغ المقدمة فى أقصر وقت ممكن – بمساعدة التصنيع. فلو كان ستالين قد قلل من سرعة التصنيع، لكان بكل تأكيد قد فقد ثقة هؤلاء الشبان وفقد تأييدهم وخاطر بمركزه – ولا شك فى صدق قول لينين عن بوخارين أنه "لم يدرس الجدلية بتاتاً". فانه حينما أبدى ملاحظته على ان سحق المعارضة "اليسارية" لم يكن سوى مقدمة لتحرك جماهير الحزب نحو اليسار، كان بوخارين قد قال ذلك بعد فوات الأوان.

ثم حين قدم تفسيره عن أسباب اتخاذ ستالين تلك القرارات، قال أنه ليست هناك حاجة للحديث عن "الشياطين" التى "ترويه فى الهلاك". وفى الحقيقة فقد كان النداء: "ستالين هو لينين اليوم"، انعكاساً صادقاً للحالة آنذاك.

ولكن ما تختلف فيه الآراء أكثر من أى شىء آخر، هو القرار الاستراتيجى الرابع لستالين. الا هو القرار الخاص بحركة "التطهير الكبير" (١٩٣٧– ١٩٣٩) التى ارادها فى أعقاب تنفيذ الجماعية والتصنيع. وأمام هذه المسألة، فاننا يلزم علينا ان نسترجع فى الذاكرة، تلك الأحداث الرهيبة التى وقعت فى الفترة من ١٩٢٩–١٩٣٩.

وتأتى بطبيعة الحال فى المقام الأول عملية تنفيذ الجماعية. فعند أول يونيه (حزيران) ١٩٢٩ كان يوجد ما لا يقل عن ٢٤ ٨٣٠ ٨٣٠ مزرعة مستقلة. وفى أول اكتوبر (تشرين الأول) ١٩٣٤، أى بعد مرور ما يزيد قليلا على خمس سنوات، نقص عدد هذه المزارع الى ٥ ٨٦٨ ٠٠٠. وخلال الفترة من ١٩٢٩–١٩٣٢ وحدها اختفت ١٥ ٤٠٢ ٨٣٠ مزرعة بعضها بفضل الجماعية وبعضها كنتيجة للاستيلاء عليها من

---

(١٩) "بولشايا سوفيتسكايا انتسيكلوبيديا" (الموسوعة السوفييتية الكبرى) الطبعة الأولى، مجلد ١١، موسكو، ١٩٣٠، عمود ٥٣٨.

" الكولاك " (ملاك الأراضى)(٢٠). وكانت أخف حقائق تنفيذ الجماعية وطأة ، هى ان الستين أو الخمسة والستين مليوناً من الفلاحين الأحرار ، قد تحولوا الى "كولخوزنيك" (فلاحى المزارع الجماعية)، وانهم جردوا من أملاكهم التى حصلوا عليها بالعناء وشق الأنفس ليرغموا على العمل فى مشروعات التصنيع. أما العملية التى كانت أكثر خشونة فهى تصفية الكولاك "كطبقة". تلك العملية التى لم تقف عن حد تجريد الفلاحين من ملاك المزارع الكبيرة نسبياً وأحسنهم انتاجاً من أملاكهم وحسب، بل ثم أبعادهم بعائلاتهم الى " مناطق نائية من الاتحاد السوفييتى ". فى يناير (كانون الثانى) ١٩٣٥، أعلن رئيس الوزراء فياتشيسلاف مولوتوف ان الكولاك الذين كان يبلغ عددهم فى سنة ١٩٢٨، ٥٦١٨٠٠٠، لم يبق منهم حتى أول يناير (كانون الثانى) ١٩٣٤ سوى ١٤٩٠٠ فقط فى ديارهم(٢١). وأدت تصفية طبقة ملاك الأراضى تلقائياً الى نتيجة أخرى هى ذبح " الدجاجة التى تبيض ذهباً ": فاستناداً ما ذكرته المراجع السوفييتية، ان الكولاك – برغم أنهم لم يكونوا يشكلون الا حوالى ٥ بالمئة من مجموع سكان الريف فقد سددوا ١٧ بالمئة من عائدات الضريبة الزراعية فى العام المالى ١٩٢٥/٢٤، وفى العام الذى تلاه ١٩٢٦/٢٥ سددوا ٢١ بالمئة من عائدات هذه الضريبة(٢٢).

وأدى تصفية الكولاك والهبوط الحاد فى انتاجية الكولخوزنيك، الى كارثة زراعية كما تصوره حقيقة هذه الأرقام: خلال الفترة من ١٩٢٨–١٩٣٥، هبط عدد الخراف والماعز فى الاتحاد السوفييتى من ١٤٦٧٠٠٠٠٠٠ الى ٦١١٠٠٠٠٠، وهبط عدد الخنازير من ٢٦٠٠٠٠٠٠٠ الى ١٧٤٠٠٠٠٠، والمواشى من ٧٠٥٠٠٠٠٠٠ الى ٤٢٤٠٠٠٠٠٠ (بالنسبة للأبقار فقط هبط عددها من ٣٠٧٠٠٠٠٠٠ الى ١٩٥٠٠٠٠٠٠). اما الأكثر خطورة فهو ان عدد الخيول هبط من ٣٣٥٠٠٠٠٠٠ الى ١٥٦٠٠٠٠٠، وهو الهبوط الذى لم تتمكن ان تعوضه زيادة عدد الأحصنة فى القوة الميكانيكية(٢٣). وكانت النتيجة هى نقص حاد فى المواد الغذائية فى جميع أنحاء البلاد، أدى بالفعل الى مجاعة فى المناطق الرئيسية لانتاج المواد الغذائية، أى فى أوكرانيا وقازاخستان، حيث استولت الحكومة على كل ما استطاعت الحصول عليه من انتاجها الزراعى. ومع ان ما تم

---

(٢٠) ن. ا. بازيلى، "روسيا تحت الحكم السوفييتى"، باريس، ١٩٣٧، ص ٢١٤ .
(٢١) "برافدا"، ٢٩ يناير (كانون الثانى)، ١٩٣٥ .
(٢٢) ا. ى. تريفونوف، "موجز تاريخ الصراع الطبقى فى الاتحاد السوفييتى خلال فترة السياسة الاقتصادية الجديدة"، موسكو، ١٩٦٠، ص ٥٥ .
(٢٣) بازيلى، المذكور سابقاً، ص ٢١٨ .

اكتشافه فى الأربعينات عن حقيقة عدد ضحايا هذه المجاعة لا يعطينا تفاصيلا دقيقة، الا أنه من الواجب ان نذكره، فخلال الفترة من ١٩٢٦–١٩٣٩ " اختفى " ما يقرب من ١٥٠٠٠٠٠٠ من القازاق، من بينهم نفر قليل فر الى الصين(٢٤).

وامتدت " ثورة البلشفيك الثانية " الى المدن، وتم تجريد " العناصر الرأسمالية " فى المدن – أصحاب الحرف والتجار. . . الخ – من أملاكهم. وهم الذين أمدوا خزانة الحكومة السوفييتية فى عام ١٩٢٥/٢٤ أيضاً بنصيب كبير من الايرادات(٢٥). وأدى اغلاق المحلات الخاصة الصغيرة التى لا تعد ولا تحصى، الى جوار الكارثة الزراعية، الى نقص خطير فى جميع السلع الاستهلاكية.

وفى النهاية، فان الانجازات الصناعية فى الاتحاد السوفييتى قد أقنعت المراقبين الأجانب – خصوصاً من كانوا فى الاتحاد السوفييتى وشاهدوا الأوضاع بأنفسهم، كيف ان التصنيع قد تم لا بفضل التخطيط السليم، ولكن بالمغامرة الطائشة التى سببت للناس كثيراً من الآلام. وكان الانتاج يتناقص سنة بعد سنة كما تبين الاحصاءات السوفييتية الرسمية. فبالنسبة لانتاج الفحم كان هدف الخطة هو انتاج ٤٥٠–٥٠٠ مليون طن فى سنة ١٩٣١، هبط الى ٢٥٠ مليون طن فى سنة ١٩٣٢، ثم الى ١٥٢ مليون طن فى سنة ١٩٣٤ بينما بلغ الانتاج الفعلى ١٢٨ مليون طن. وبالنسبة لانتاج الكهرباء، فالارقام الماثلة فى نفس السنوات كانت كالاتى: ١٥٠٠٠٠٠٠، ١٠٠٠٠٠٠٠، ٣٨٠٠٠٠٠٠، ثم ٣٦٢٠٠ مليون (كيلو وات ساعة) وبالنسبة لانتاج الحديد الزهر، ٦٠، ٢٢، ١٦، ثم ١٤,٥ مليون طن، وبالنسبة للبترول، ١٥٠، ٨٠، ٩٠، ٤٧، ثم ٢,٨٥ مليون طن(٢٦).

ثم ننقل الى " التطهير الكبير "، فنرى ان كلا من باين وخروشتشوف يحاولان التعليل بمختلف الأسباب لاثبات أنه لم يوجد هناك أعداء " للاشتراكية المنتصرة " فى الاتحاد السوفييتى آنذاك، وان ستالين كان يقاتل الأشباح. فهل كان الوضع كذلك بالفعل ؟

لم تجذب المحاكمات العلنية والسرية لكبار المسئولين السوفييت، وخصوصاً محاكمات تصفية " الحرس اللينينى "، الاهتمام الكافى فى العالم الخارجى، وذلك لعدة أسباب أهمها ان المصدر الرئيسى للمعلومات عن فترة " التطهير الكبير " هذه، هم من بقوا على قيد

---

(٢٤) هوج سيتون واطسون، "من لينين الى خروشتشوف: تاريخ الشيوعية فى العالم"، نيويورك–واشنطون، ١٩٦٠، ص ١٦٤، حاشية ٢.

(٢٥) تريفونوف، المذكور سابقاً، ص ٨٥.

(٢٦) بازيلى، المذكور سابقاً، ص ١٩٩. "الاقتصاد القومى للاتحاد السوفييتى فى ١٩٦٧: كتاب الاحصاءات السنوى"، موسكو، ١٩٦٨، صفحات ٢٣٠، ٢٣٦، ٢٤٠، ٢٤٣.

الحياة من المعارضة " اليسارية " أو " اليمينية " . وفى الحقيقة، يجب اعتبار ان تصفية " الحرس القديم "، بنوع خاص، نوع من التبرير الدعائى لحركة تطهير بالجملة بين الانتليجنسيا الجديدة، وخصوصاً التكنولوجيين منهم . وهناك سؤالين يتحتم الاجابة عليهما، وهما : الى أى درجة كان تحطيم " الحرس اللينينى " ضرورياً بعد البناء الناجح للاشتراكية فى بلد واحد ؟ والى أى درجة كان استخدام الرعب بالجملة ضرورياً فى بلد كهذا ؟

وقد يجوز أن نبدأ بالقول ان الاعتقاد بأنه لم توجد مقاومة ضد ستالين على جميع المستويات، اعتقاد يفتقر الى أساس يسنده . ومع اننا حتى الآن ليس تحت أيدينا دليل مباشر على أى مؤامرات فعلية لقلب ستالين أو نظامه خلال الفترة التى نتحدث عنها، فهناك " برهان " يقدمه لنا مشهد المحاكمات . وهو البرهان الذى يصبح أكثر منطقية عما بدى عليه فى يوم من الأيام . وكون المتهمون غير مذنبين بالنسبة للتهم التى الصقت بهم لا يعنى أنهم كانوا حملانا وديعة، أو ان ستالين لم يكن لديه أسباب جدية لتصفيتهم. فالمتهمون من أمثال اتباع تشيكاً، أو باكاييف "اليسارى"، أو ياجودا "اليمينى"، لو قدم واحد منهم لمحاكمة أمام " محاكم نورمبرج" مثلا، أو أى بلد ديموقراطى عادى، لكان قد نال حكماً لا يقل عن السجن مدى الحياة . فياجودا، على سبيل المثال، كان بالتأكيد ضالعاً فى جريمة اغتيال سيرجى كيروف، زعيم الحزب فى لينينجراد، وفى جريمة القتل بالسم لعدد من الرجال البارزين مثل فاليريان كويبيشيف، احد مؤسسى الصناعة السوفييتية، وفياتشيسلاف مينجينسكى، الذى كان رئيساً لجهاز أمن الدولة قبل يجوف، وماكسيم جوركى وماكسيم بشكوف، ابن جوركى. لقد كان ياجودا هو الذى أعد مشاهد المحاكمات، وهو الذى وضع معسكرات الاعتقال .

ويوجد بين " الضحايا " ب. ب. بوستيشيف، الذى رد خروشتشوف اعتباره إليه فى خطبته "السرية". وهو روسى الأصل، عينه ستالين فى مارس (آذار) ١٩٣٣ أثناء المحاعة حاكماً مطلقاً على أوكرانيا . وكان حكمه من ذلك النوع الذى دفع ن. ا. سكريبنيك الى الانتحار بعد شهرين فقط من توليه الحكم . لقد تولى يوستيشيف تطهير ٦٠ بالمئة تقريباً من كبار المسئولين، و ٢٠ بالمئة من أعضاء الحزب، ثم أتى عليه الدور هو نفسه فى التطهير فى النهاية على يد ستالين(٢٧) .

---

(٢٧) هوج سيتون واطسون، المذكور سابقاً، ص ١٦٣ .

ويوجد دليل بالوثائق، على ان بوخارين، رئيس المعارضة "اليمينية"، حاول فى ١١ يوليو (تموز) ١٩٢٨، أن يكوّن تكتلا مشتركاً مع خصمه "اليسارى" كامينيف. وبهذا الشأن، وجه بوخارين نداءاً الى حاينه المأمول جاء فيه:

اننا نشعر ان منهج ستالين فيه الخراب على الثورة بأكملها . . . ان الخلافات بيننا وبين ستالين أكثر جدية بمراحل كثيرة عن الخلافات المعتادة بيننا وبينكم. ان (رئيس الوزراء) ريكوف، و (رئيس نقابات العمال) تومسكى، وانا نوافق على تكييف الحالة كالاتى: "سيكون من الأفضل كثيراً لو كان زينوفيف وكامينيف فى المكتب السياسى بدلا من ستالين"(٢٨).

لا شك فى ان هذه العبارات كانت تعكس ما يدور فى نفوس صفوف عريضة من "الحرس اللينينى"، ومن غير المحتمل ان يكونوا قد استسلموا بعد سنوات قليلة، وهم يرون أشد مخاوفهم تتحقق. وبرغم ان المعلومات التى أمكن الحصول عليها عما دار داخل الكرملين فى الفترة من ١٩٣٠–١٩٣٩، معلومات قليلة نسبياً، فمن المحقق، كما بين عبد الرحمن افتورخانوف فى كتابه "ستالين والحزب الشيوعى السوفييتى: دراسة فى فنون السلطة"، من المحقق ان المعارضة ضد ستالين كانت تتمثل فى السنوات ١٩٣٠–١٩٣٢ فى كلا اللجنة المركزية والمكتب السياسى، فى شكل المجموعات التى تزعمها سيرتسوف، وريوتين، وسميرنوف، وطولماشيف وسكريبنيك(٢٩). وكانت مجموعة سميرنوف قد طلبت اعادة النظر فى برنامج التصنيع الشامل، وحل المزارع الحكومية والجماعية، واعادة تنظيم جهاز الأمن واخضاعه لقوانين البلاد، واستقلال نقابات العمال عن سلطة الدولة – وابعاد ستالين عن منصب السكرتير العام للحزب.

وهناك برهان أقوى وأشد، فان ستالين قد لحقت به هزيمة خطيرة فى سنة ١٩٣٦، حين رفض الاجتماع العام للجنة المركزية بأغلبية الثلثين ان يعتمد التقرير الذى قدمه يجوف، صنيعة ستالين. وكان من بين المعارضين أعضاء فى المكتب السياسى مثل رودزوتاك، وكوسيور، وتشوبار، وبيتروفسكى، ويوستيشيف، وايخه.

ويستشهد هوج سيتون واطسون بما ذكره افتورخانوف عن المنازعات التى نشبت فى اجتماع عام للجنة المركزية عقد فى سبتمبر (أيلول) ١٩٣٦(٣٠). ولكن المراجع السوفييتية

---

(٢٨) دانيلز، المذكور سابقاً، ص ٣٠٨.
(٢٩) عبد الرحمن افتور خانوف، "ستالين والحزب الشيوعى السوفييتى: دراسة فى فنون السلطة"، ميونيخ، ١٩٥٩، صفحات ١٨٩–١٩٥.
(٣٠) هوج سيتون واطسون، المذكور سابقاً، صفحات ١٦٧–١٦٨.

لم تذكر شيئاً عن اجتماع كهذا . وخروشتشوف قرر ان ستالين لم يقابل أى شخص رسمى من الحزب فى هذا الشهر(٣١) . ومن المحقق ان معلومات افتورخانوف المكتوبة من الذاكرة، كان يقصد بها الاجتماع العام للجنة المركزية الذى عقد فى يونيه (حزيران)، والذى كما تذكر المراجع السوفييتية، نوقش فيه موضوع وضع حدود للتطهير الذى كان قد بدأ لتوه . وفى النهاية، فكما ذكر افتورخانوف، فجميع القضايا التى دارت فى فصول هذه المحاكمات كانت كلها سخافة وتضليل . واستشهد افتورخانوف على سبيل المثال، بحديث لبوخارين :

لو كان على ان أصيغ برنامجى فى الفاظ علمية، لكان بالنظر الى علم الاقتصاديات، مثل رأسمالية الدولة والملكية الزراعية الفردية وتحقيق عدد المزارع الجماعية، والامتيازات الأجنبية، والتنوع فى الاحتكارات التجارية الخارجية، لكان رأيى جعل البلد رأسمالية(٣٢) .

ويضيف افتورخانوف :

ولكن هذا لم يكن ثورة مضادة أو خيانة أو قتل، بل . . . سياسة اقتصادية لينينية جديدة أشد محافظة(٣٣) .

والمهم فى بيان بوخارين، هو أنه استعمل عبارة " جعل البلد رأسمالية " ولم يقل "العودة الى الرأسمالية". وبرنامج بوخارين فى الحقيقة لم يوافق على هدف التصنيع بأقصى قوة أو على الدور القيادى للحزب بهدف الحد من سياسة ستالين لذبح مواطنيه بالجملة (مع أنه لم يذكر شيئاً عن اقامة الديموقراطية) . واما اذا كان من الممكن ان يقال عن هذا البرنامج أنه برنامج " لينينى " فهذا موضوع آخر. وعلى أى حال، فينبغى علينا ان نتذكر ان لينين ذاته يحجم عن ارتكاب الفظائع، وكانت له تحفظات أيديولوجية، لا ضد ستالين، ولكن ضد بوخارين .

ومما هو جدير بالتسجيل فى هذا الشأن، ملاحظة افتورخانوف ان محاكمات التكتل " اليسارى " وحدها هى التى سارت وفقاً لما تمناه ستالين. ففى أغسطس (آب) ١٩٣٦، أقر كامينيف وزينوفيف ومؤيدوهم بكل ما أراد المدعى العام منهم الاقرار به، فى حين ان بوخارين وريكوف وبقية " اليمينيين "، خاضوا فى المصاعب بثبات. فمثلا كريستينسكى

---

(٣١) نيكولايفسكى، المذكور سابقاً، ص ٢٣ .
(٣٢) افتورخانوف، المذكور سابقاً، صفحات ٢٣٤– ٢٣٥ .
(٣٣) المرجع السابق، ص ٢٣٥ .

أصر حتى النهاية على انكار أنه مذنب، وبوخارين ظل يصيغ اعترافاته فى أسلوب يمكن فهمه بعكس معناه الظاهرى(٣٤) .

ولم يمكن ذلك بالشىء المستغرب نظراً الى حقيقة ان " اليساريين" بينما هم كانوا قد أفلسوا سياسياً فى ذاك الوقت، بمطالبتهم المواطنين بتقديم تضحيات أعظم حتى مما فعله ستالين، فان " اليمينيين" وهم أكثر الشيوعيين اعتدالا، كان باستطاعتهم ان يقولوا بملىء الفم ان أسوأ مخاوفهم كانت تتحقق يوماً بعد يوم .

وهكذا، نرى أنه لا يوجد أساس للافتراض بأن ستالين " رأى اعداءاً حيث لم يوجد أحد منهم ". بل على العكس، فان أى بلد قد تحل بها مثل هذه الكارثة، فلا بد من ان توجد بها معارضة عنيفة . كما ان الافتراض بأن السياسيين البارزين كانوا مستعدين بعد " مؤتمر المنتصرين " ان " يصفحوا وينسوا "، افتراض يتناقض مع قواعد علم النفس ودروس التاريخ.

وكما ذكرنا، فان المعارضة الشديدة الواسعة لسياسة ستالين، كان لا بد من ان تلاحظ داخل الحزب من أعلى الى أدنى مستوياته على طول مرحلة " ثورة البلشفيك الثانية " . ولكن ستالن كان باستطاعته ان يستغل مختلف التطورات الاجتماعية التى جرت فى البلاد آنذاك . وأهمها ظهور الطبقة الحاكمة الجديدة فى أعقاب حركة التصنيع، وهى الطبقة التى شكلت قاعدة نفوذه . وحينما بدأت النتائج المروعة لتنفيذ الجماعية الشاملة فى الزراعة تظهر واضحة جلية للعيان مشيرة الى كارثة محققة، تقدم ستالين متهماً السلطات المحلية بأنها " تبالغ فى الأمور"، وذلك فى مقالة له بعنوان " رد على رفاقنا الكولخوزنيك "، نشرت فى ٣ أبريل (نيسان) ١٩٣٠ . ثم عجل بعقد المؤتمر السادس عشر للحزب فى يونيه (حزيران)، وجعل محور اجتماعاته موضوع : " نحن على وشك تحويل هذا البلد من بلد زراعى الى بلد صناعى"(٣٥). وكان غرضه من ذلك ان يظهر أمام قادة الحزب أنه " يتقدم بثبات نحو الأمام " غير عابىء بما يلقيه " اليمينيون " فى طريقه. ومن ناحية أخرى، أراد ان يضع أولئك الذين يهمهم أمر التصنيع الساحق أمام الخيار بين تأييد سياسته فى " هجوم اشتراكى بطول الجبهة كلها، وتصفية الكولاك كطبقة، وتنفيذ الجماعية " فى مجموعها، أو ان يرفضوا برنامج التصنيع. ولم يكن بالتالى مستغرباً أن حصل ستالين على التأييد الذى كان ينشده .

---

(٣٤) المرجع السابق، صفحات ٢٣١–٢٣٧ .

(٣٥) "تاريخ الحزب الشيوعى للبلشيفيك لجميع الاتحاد: منهج مختصر"، موسكو، ١٩٥٠، ص ٢٩٧ .

وفى يناير (كانون الثانى) ١٩٣٤، عقد المؤتمر العام السابع عشر للحزب – " مؤتمر المنتصرين " فى ظروف مماثلة . فقد كانت الحالة الاقتصادية فى أواخر عام ١٩٣٣ قد أخذت فى التحسن بعد المجاعة والشتاء الكئيب. ووقف ستالين يصور المستقبل فى ضوء المتفائل، ويتحدث عن ضرورة جعل الكولخوزنيك جميعهم من " الميسرين "، وكان باستطاعته ان يثبت وجود تحسن طفيف فى الحالة نتيجة لسياسته . وهكذا تقدم بالدعوة الى عقد مؤتمر الحزب التالى وهو مطمئن.

وكان ما يشغل باله هو ماذا يمكن ان تأتى به اللجنة المركزية الجديدة التى سوف ينتخبها المؤتمر. فعلينا ان نتذكر ان المشهد السياسى والاجتماعى فى البلاد كان يتميز ليس فقط بتنفيذ الجماعية عنوة، وتصفية طبقة ملاك الأراضى (الكولاك) بالاستيلاء على أملاكهم وابعاد ما لا يقل عن خمسة ملايين من الناس عن مواطنهم (وربما أكثر من ذلك حيث أن المراجع السوفييتية بعد ستالين قررت ان ما يبلغ ١٥ بالمئة من سكان الريف قد مسهم الضرر)(٣٦) ، ولكنه تميز أيضاً بموت ملايين من البشر جوعاً فى أوكرانيا وقازاخستان . وكذلك يجب ان نتذكر ان الطبقة الحاكمة الجديدة التى اعتمد عليها ستالين لوضع الجماهير تحت سيطرته، كان كيانها قد تم تشكيله بصورة جوهرية وأصبحت تقف على قدمين ثابتتين. وكان برنامج البناء الأساسى (للاشتراكية) قد تم بالفعل، وانتهى عصر الاحلام وأساطير الشرق السعيدة، وبدأت حياة شاقة جافة وعرة يخيم عليها ظلام الحزن ويحف بها الرعب من كل جانب، وتختلط باجوائها انات الضحايا . وفى ديسمبر (كانون الأول) ١٩٣٦ صدر الدستور الجديد للاتحاد السوفييتى، وأعلن ان الاشتراكية قد تم بناؤها، ووصف " الواقع السوفييتى " بأنه " حلم البشرية الوضاء " الذى من أجله قدمت أغلى التضحيات. وكان ستالين محقاً من الناحية الشكلية، فالنظام الجديد اتفق بالفعل مع الصيغة الاشتراكية الأصلية من حيث ان كل شخص – كما أعلنت الدولة الشيوعية – كان يعمل بحسب مقدرته، ويأخذ بحسب كده – اى كسجين فى احد معسكرات الاعتقال. ولكن هذا على نحو ما، لم يكن هو ما يطلبه الناس . وكانت مقاومتهم سواء ايجابية أو سلبية، هى الشىء الذى لم يستطع ستالين تجاهله بحال من الأحوال . وأمام هذا الواقع فاننا لا يمكننا ان نفعل كما فعل بوخارين مثلا، ونتهم ستالين " بالأمية السياسية " حين قال ان الصراع الطبقى، أى الاجتماعى، يتزايد بدلا من ان يتناقص فى عملية بناء الاشتراكية.

---

(٣٦) ب. ن. بونوماريف واخرين، "تاريخ الحزب الشيوعى للاتحاد السوفييتى" الطبعة الثانية (المصححة)، موسكو، بدون تاريخ، ص ٤٤٣ .

وفى الحقيقة فقد أثبتت التجربة العملية وبرهنت بالحجة الدافعة على ان المصاعب الحقيقية أمام أى قيادة شيوعية تبدأ حين يتحقق مستوى معين من التطور الصناعى. فبينما الشيوعيون يعانون من بعض الصعوبة لكى يستعيدوا مواقفهم فى بلغاريا ورومانيا ويوغوسلافيا وحتى فى المجر، حيث يقف عدد من العوامل كالتقاليد والثقافة والعنصر ضد الشيوعية، فاننا نجدهم يعانون صعوبات كبيرة متزايدة فى بلاد أرقى مثل الاتحاد السوفييتى وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا الشرقية .

ومع ان المرء قد يجادل فيما اذا كانت الأجراءات التى اتخذها ستالين لايقاع المواطنين تحت السيطرة كان ينبغى ان تكون عنيفة (كما ذكر افتورخانوف، حوالى ٥ ملايين مواطن، يشكلون ٣ أو ٤ بالمئة من مجموع السكان تعرضوا لاجراءات القمع) (٣٧)، فقد كانت هذه الاجراءات من وجهة نظرة (ستالين) متفقة تماماً مع العقل، ومؤسسة على استيعاب حقيقة ان السخط الشعبى قد يظهر بالفعل بعد ان يتم التغلب على الصعوبات الأولية . وتعتبر حركة فلاسوف من المظاهر المتأخرة التى عبرت عن هذا السخط. وفى النهاية، رفض ثلثى أعضاء اللجنة المركزية وما يزيد عن نصف المرشحين لعضوية المكتب السياسى ان يخولو ستالين فى ان يبدأ حمام دم جديد بين المواطنين.

وهكذا كان موقف ستالين فى عام ٣٦–١٩٣٧ فى منتهى البساطة . فهو لم يكن بامكانه ان يأمل فى ان يسامحه الناس عن كارثة الجماعية وتصفية طبقة الملاك وبرنامج التصنيع عديم الرأفة، ولا هو بامكانه ان يأمل فى ان يحصل من اللجنة المركزية التى انتخبت من المؤتمر السابع عشر للحزب، وخصوصاً ان " الحرس اللينينى " كان له الأغلبية فيها، على إذن بأن يسحق بلا رحمة أى مقاومة جماهيرية . وبما أنه كان لديه جميع الأسباب التى تبرر اعتقاده فى أنه إذا لم ينجح فى خلق جو عام شامل من الرعب، فان النظام بأكمله سينهار. ومن هنا إيمان ستالين بضرورة تصفية " الحرس اللينينى " . ولا شك ان رأى ستالين فى تصفية هذا أو ذاك من كبار المسئولين فى الحزب موضوع يقبل المناقشة، ولكن الاجابات الصحيحة على مثل هذه الأسئلة ترقد فى الملفات السرية للسلطات القانونية السوفييتية . ومع ذلك فالمعلومات التى أمكن الحصول عليها تبين ان ستالين لم يصفى (على الأقل من القيادة) غير أولئك الذين رفضوا تأييد قراره بالقيام بحملة تطهير شاملة . وكما قال خروشتشوف فى خطبته " السرية "، ان ٩٨ شخصاً من ١٣٩ هم أعضاء أو مرشحون لعضوية اللجنة المركزية ومنتخبون من المؤتمر السابع عشر للحزب،

(٣٧) افتورخانوف، المذكور سابقاً، ص ٢٢٣ .

أى حوالى ٧٠ بالمئة، اعتقلوا واعدموا – وهذه المعلومات تتفق مع ما نشره افتور خانوف قبل ذلك بخمس سنوات، والتى ذكر فيها ان ثلثى أعضاء اللجنة المركزية عارضوا برنامج " التطهير الكبير " الذى قدمه ستالين ويجوف. كما ذكر خروشتشوف ان ١ ١٠٨ أشخاص من ١٩٥٦ هم المندوبين فى المؤتمر قد تعرضوا " لاجراءات القمع " . وهذا الرقم يدانى عدد مؤيدى الـ ٩٨ عضواً فى اللجنة المركزية . ثم ذكر خروشتشوف كذلك، أنه خلال الفترة ١٩٥٤–١٩٥٦، قام قادة الحزب برد الاعتبار الى ٧ ٦٧٩ شخص كان معظمهم قد مات قبل ذلك التاريخ. وهذا يعنى ان من رد الاعتبار إليهم خلال فترة " إزالة الستالينية " كانوا بعضاً من كبار قادة الحزب فقط من الذين كانوا قد عبروا عن شكهم فى سلامة اجراءات ستالينية معينة، وليس ملايين المواطنين من ممثلى الطبقة المتوسطة الذين كانوا الهدف الفعلى " للتطهير الكبير " . ويبدو ان الفكرة القائلة بأن ستالين كان " وحشاً متعطشاً للدماء " (والتى تعنى بالتالى ان الستالينية لا بد وان تنسب الى خلق ستالين) لا تتمتع بالمقومات الكافية أمام حقيقة أن سياسة كسياسة الغاء الملكية الخاصة لا بد وان تواجه مقاومة عنيفة من الغالبية العظمى من المواطنين فى أى بلد فى العالم . والاجراءات التعسفية التى تفرضها أى دكتاتورية شيوعية، لم تتوقف على شخصيات الأفراد من قادتها، ولكن توقفت دائماً على درجة المقاومة الشعبية فى مختلف أطوار نحو هذه الدكتاتوريات. وهذا يفسر التلطيف النسبى للدكتاتورية الشيوعية فى الاتحاد السوفييتى خلال فترة " السياسة الاقتصادية الجديدة "، أو فى يوغوسلافيا فى الوقت الحاضر (وفى كلا الحالتين لم تتعد سياسة الغاء الملكية الخاصة حدودها المنطقية) . وعلى هذا النمط ينبغى ان تفسر قسوة دكتاتورية ستالين، أو على سبيل المثال الطريقة الخالية من الرأفة التى سحقت بها الانتفاضات الشعبية المعبرة عن سخط الشعوب فى المجر سنة ١٩٥٦ وفى تشيكوسلوفاكيا سنة ١٩٦٨ .

وختاماً، فمن الواجب ان نبرز ضرورة الرجوع الى المبادىء الأولية لعلم السوفييتيات، كما يحدث فى أى ميدان دراسى آخر (وفى هذه الحالة، فاننا نفكر فى دوافع الخضوع للسلطة) . فمن المحتمل ان نحكم بأنه لا يوجد فى الواقع شىء مثل التبعية الآلية، وبان استخدام الرعب على النطاق السياسى ليس على الاطلاق انعكاس لأى " شياطين " تهلك قلب زيد أو عمرو من الناس . ومن المحتمل أيضاً بأن تجريد الناس مما يملكونه، يستفز مقاومتهم دائماً، أى أن المقاومة الشعبية ضد الشيوعية أمر يجب التسليم به جدلا . فمثل هذا التفكير قد يحرر عقولنا من كثير من التضليل الاجتماعى والسياسى .

تفسير جديد للتعايش السلمى

بقلم : ب. كروجين

ظهرت دلالات فى أواخر العام المنصرم (١٩٦٩) تشير الى ان قيادة الاتحاد السوفييتى قد بدأت عملية مراجعة واعادة نظر فى المبدأ الاستراتيجى السوفييتى عن " التعايش السلمى ".

وكان العنصر الأساسى الذى يقوم عليه ذلك المبدأ أثناء فترة حكم خروشتشوف، هو المناقشة الاقتصادية السلمية بين النظامين الشيوعى والرأسمالى . ولم تستبعد فكرة السلام هذه الا فى المجال الأيديولوجى فقط. وبقيت الحالة جوهرياً كما هى بعد عزل خروشتشوف. ثم حدث فى شهر أكتوبر (تشرين الأول) الماضى ان ظهرت صحيفة "كومونيست"، صحيفة الحزب المهتمة بالمسائل النظرية، بمقالة كتبها ميخائيل سوسلوف، كبير أيديولوجى الحزب، تحمل عنوان " اللينينية والتحول الثورى للعالم " . وجاء بتلك المقالة هذه الفقرات ذات المغزى : " ان التحليل الحديث للظواهر الاجتماعية يشير الى ان المرحلة الحالية تتميز باحتمالات متزايدة لتقدم أبعد للقوى التقدمية والثورية "(١).

ولم يمضى وقت طويل حتى نشرت نفس الصحيفة، فى ديسمبر (كانون الأول) ١٩٦٩ مقالة مماثلة لسكرتير آخر للجنة المركزية للحزب ، هو بوريس بونوماريف تحمل العنوان " ف. ا. لينين ــ القائد العظيم للعصر الثورى"، وفى هذه المقالة يقرر بونوماريف دون مواربة : " ان سياسة التعايش السلمى شكل معين من أشكال الصراع الطبقى فى حلبة الصراع الدولى . فليس فقط انها لا تخفف من حدة الصراع الدولى، بل انها أيضاً تساعد على مساندته وتدعيمه . ان مبدأ التعايش السلمى لا يمتد ولا يستطيع ان يمتد الى الصراع الطبقى فى داخل الدولة الرأسمالية والى الصراع الأيديولوجى والى كفاح الشعوب

---

(١) "كومونيست"، ١٩٦٩، رقم ١٥، ص ٣٤ .

المغلوبة على أمرها ضد مستعبديها "(٢). " ان الحزب الشيوعى للاتحاد السوفييتى على موعد مع القدر لكى يكون هو عملياً، أول من يضع حلا لمشكلة ايجاد الاتصالات المتبادلة بين دولة اشتراكية وبين الحركة العمالية الثورية فى المعسكر الامبريالى، وواجب توحيد وتنسيق الجهود الهادفة الى علاقات سليمة مع الدول الرأسمالية مع بذل المساعدات والتأييد لهذه الحركة يقع أيضاً على عاتقه "(٣).

وهكذا أشهر اثنان من كبار المسئولين فى اللجنة المركزية للحزب " الحرب الباردة " ضد العالم الحر بأقصى ما يمكن ان تكون من الحدة والعنف. ومن المحقق ان سوسلوف وبونوماريف كانا يتحدثان باسم اللجنة المركزية للحزب بكاملها. إذ ان تفسيرهم الجديد هذا للتعايش السلمى قد رددته بعد ذلك صحف الحزب الأخرى بما فيها صحف الجيش الأحمر (وهذا أمر له مغزاه). ومن أبرز ما كتب فى هذا الشأن، مقالة بعنوان " مشاكل الحرب والسلام والعمل الثورى" بقلم الكولونيل ج. خفاتكوف، المرشح لنيل الدكتوراه فى العلوم الفلسفية، ونشرت فى عدد يناير (كانون الثانى) فى مجلة "كومونيست فوورجينيخ سيل" التى يصدرها المكتب السياسى الرئيسى للجيش والبحرية السوفييتية. وبرغم ان المؤلف انهمك فى مجادلة مقنعة ضد ماوتسى تونج، فان هذا لا يقلل بأى حال من الأحوال من قيمة الآراء التى عبر عنها بشأن التعايش السلمى. ويقصد خفاتكوف موازنة بين " التعايش " كما شرحه سوسلوف وبونوماريف وبين تصور حرب عالمية ثالثة، التى يقول عنها انها " لا يمكن اعتبارها كتدعيم لحركة الشعوب نحو الاشتراكية " لأن " عواقبها قد تكلف البشرية أرواح مئات الملايين ودمار أعظم كنوز الحضارة والتقدم المادى "(٤). ثم يستطرد: " ان التعايش السلمى لا يمحو العداوة بين النظم الاجتماعية السياسية المتباينة . . . بل ان التعايش السلمى يقرر الموقف الطبقى للاشتراكية فى مسألة الحرب والسلام، ويعنى نضالا لا يتزعزع فى مجالات الاقتصاد والسياسة والأيديولوجية. والنقطة الوحيدة هنا هى ان الوسائل المستخدمة فى هذا الصراع وسائل سلمية "(٥).

وبرغم محاولات المؤلف للتمويه على الحقيقة، فلا يوجد شىء سلمى تماماً فى الشكل الجديد للتعايش. فحديثه عن فيتنام مثلا ليس الا تبرير مكشوف للزوم اشعال حروب " صغيرة " وتقديم كل المساعدات الممكنة، بما فيها المساعدات العسكرية،

---

(٢) المرجع السابق، ١٩٦٩، رقم ١٨، ص ٢٤.
(٣) المرجع السابق، ص ٢٠.
(٤) "كومونيست فوورجينيخ سيل"، ١٩٧٠، رقم ١، ص ٣٠.
(٥) المرجع السابق، صفحات ٣١-٣٢.

الى الجانب الذى يؤدى انتصاره أضعاف الموقف الاستراتيجى للعالم الحر. فيتحدث عن " النضال " من أجل تصفية التكتلات الدفاعية للغرب. ونظراً لفشله فى تكييف هذه الكلمة، قال ان فى ذهنه مناهج أكثر دهاءاً من الدبلوماسية والدعايات من أجل تحقيق هذه الغاية. ثم يتحدث خفاتكوف عن " النضال من أجل تثبيت الحدود القائمة حالياً فى أوروبا وتجريد ألمانيا الغربية من الأسلحة النووية "(٦)، وعن " النضال العمالى فى الدول الرأسمالية ضد التسلح "، وهو ما لا يدع مجالا لشك ان التفكير فى أضعاف القوات المسلحة للغرب عن طريق استخدام أساليب مثل التحريض على العصيان والهروب من الخدمة العسكرية، يعيش بين طيات عقله(٧). وفى النهاية يصف خفاتكوف عملية تأييد حركات التحرر الوطنى كذلك، بأنها عناصر ذات أهمية كبيرة فى سياسة التعايش(٨).

ثم ينوه خفاتكوف بكلام سوسلوف وبونوماريف ويؤكد بأن الشكل الجديد للتعايش يمكن ان يكون فعالا فقط فى حالة ما إذا كان الاتحاد السوفييتى يحافظ على " مركز القوة " الذى يتمتع به الآن فيقول: "كان من أكبر الأمور أهمية لحماية السلام والمكاسب الشعبية والتطور التقدمى للانسان، ابتكار الاتحاد السوفييتى للأسلحة النووية والصواريخ القوية . . . "(٩).

ثم يستطرد: " ان انتصار الثورة الاشتراكية فى كوبا الذى تحقق فى ظروف المرحلة الثالثة من أزمة النظام الرأسمالى، وظهور عدد من الدول الافروآسيوية على طريق التطور الاجتماعى التقدمى، أصبح كذلك ممكناً بسبب ان القدرة الرائعة للاتحاد السوفييتى والخوف من بطش قواته المسلحة قد أوقفت القدرة العسكرية لرد الفعل الاستعمارى عند حدها "(١٠).

وبناء على ذلك يتبين ان المرحلة القادمة من " التعايش "، سوف تقترن حتماً باستمرار سباق التسلح من جانب الاتحاد السوفييتى.

والى جانب الجبهة الموجهة ضد العالم الحر، يتطلب شكل التعايش الجديد جبهة أخرى للمواجهة من الداخل، كما يقولون، " ان زيادة نمو العمل الثورى فى العالم عن طريق سياسة ثورية خالصة، لهى اليوم وفوق كل زيادة للقوة، الواجب الرئيسى للحركة

---

(٦) المرجع السابق، ص ٣٢ .
(٧) المرجع السابق، ص ٣٣ .
(٨) المرجع السابق، ص ٣١ .
(٩) المرجع السابق، ص ٣٤ .
(١٠) نفس المرجع السابق .

العمالية الدولية وحركة التحرر، أعنى ‘النظام الاشتراكى العالى’. وأى تراجع أمام الامبريالية فى هذا الشأن، مهما كانت مبرراته، سوف يعنى فى مجال ‘سياسة الأمر الواقع’ عرقله وتقييد خطير لمقدرات جميع القوى الثورية فى وقتنا المعاصر”(١١).

وهناك المزيد من ردود الفعل لعملية تحرير الانسان الجارية على قدم وساق داخل الكتلة الشيوعية والتى مثلتها أحداث تشيكوسلوفاكيا فى عام ١٩٦٨ تمثيلا دراميا. إذ تزعم صحيفة ”كومونيست فؤوروجينيخ سيل“ ان النضال ضد التهادن البرجوازى للمتراجعين اليمينيين، هو المهمة الحالية للماركسية اللنينية فى الدول الاشتراكية(١٢). وتستطرد الصحيفة قائلة: ”ان المتراجعين اليمينيين فى هذه البلاد يفعلون كل شىء فى امكانهم للتهوين بخطر العدوان الامبريالى، مدعين كما حدث فى تشيكوسلوفاكيا، ان ‘اوروبا غير مهددة بخطر الحرب’ وبالتالى يصرون بناء على هذا، على نزع سلاح الدول الاشتراكية من جانب واحد، وحل حلف وارسو وهلم جرا“(١٣).

ومن الصعب فى الحقيقة القول ما اذا كان ”اليمينيين“، كالمطالبين بالاصلاح فى تشيكوسلوفاكيا مثلا، أم ”اليساريون“، كالصينيين الملوحين بسيوفهم، هم الذين يشكلون التهديد الأعظم للكرملين. ففى الوقت الحاضر، يبدو ان الفئة الأولى هى التى تفعل ذلك. ولكن مهما كانت الحال، فموسكو لن تكون مدققة فى اختيارها للأساليب التى سيكون عليها اتباعها لتزيد من نفوذها داخل الكتلة الشيوعية كما بينته مقالة بونوماريف. كما ان خفاتكوف لم يكن يطلق مجرد كلمات حينما قال: ”فى الوقت الحاضر... تستخدم المقدرة الكاملة للقوات المسلحة السوفييتية فى مهام خارجية — من أجل الدفاع عن الوطن الاشتراكى ضد المعتدين الامبرياليين، وتأدية واجبها الدولى“(١٤).

لقد كان إذن ”من أجل تأدية واجبه الدولى“ ان قام الاتحاد السوفييتى بتدخله المسلح فى تشيكوسلوفاكيا.

وهناك البعض فى الغرب ممن يرون ان زيادة حدة الموقف فى جبهة ”المواجهة من الداخل“ سوف تضعف تلقائيا من الضغط السوفييتى على العالم الحر والعكس بالعكس. ولكن مثل هذا التصور برغم منطقيته الظاهرية، يجب استبعاده تماما على أساس أنه وهم ومحض خيال. فالسياسة الخارجية السوفييتية القائمة على مبدأ الوحدة

(١١) ”كومونيست“، ١٩٦٩، رقم ١٨، ص ٢٦.
(١٢) ”كومونيست فوور وجينيخ سيل“، ١٩٦٩، رقم ٢٤، ص ١٥.
(١٣) نفس المرجع السابق.
(١٤) المرجع السابق، ١٩٧٠، رقم ١، ص ٣٥.

الجدليـة للاضداد (وهى فى هذه الحالة مسئوليات حماية المصالح القومية، وكسب أراضى وشعوب من أجل الشيوعية)، هذه السياسة تكثر فيها مفاجآت " غير منطقية " فى ظاهرها، بينما هى تحتفظ بسلامة تركيبها فى حد ذاتها. فعلى سبيل المثال، لم تمنع أزمة تشيكوسلوفاكيا فى عام ١٩٦٨ الاتحاد السوفييتى من ان يخلق مصدراً جديداً للتوتر فى غرب أوروبا، بالتلميح الى إمكـان " تدخل قانونى" آخر فى ألمانيا الغربية. وهكذا فموسكو يطيب لها أحياناً ان تستمتع الى الصوت " الانتقامى" الصادر من ألمانيا الغربية. ومن المحقق انها كـانت تأمل لو نجح واحد على الأقل من مرشحى الحزب الديموقراطى القومى الألمانى اليمينى فى انتخابات العام الماضى للبوندستاج (برلمان ألمانيا الغربية)، لتكون " الانتقامية " و " النازية الجديدة " هى أفضل أسلحتها ضد الميول التحررية المعادية للشيوعية والاتحاد السوفييتى فى أوروبا الشرقية. بل ومن المحتمل ان تكون هذه الأسلحة قد لعبت دورها فى بعض أحداث قريبة العهد فى براغ، مثل طرد دوبتشيك من اللجنة المركزية للحزب الشيوعى التشيكوسلوفاكى واعداد المحاكمات " لليمينيين". اما مشكـلة الصين المعقدة، فقد يكون حلها فى موت ماو أو حدوث معجزة. ومن الناحية الأخرى، فان التوصل الى نوع من المهادنة مع الغرب، سوف يخلق على الأقل صدمات جديدة على الحدود الصينية السوفييتية — وهى الصدمات التى لا تحظى بشعبية بين شيوعيي أوروبا الغربية، ولها تأثير ضار على معنويات الشعب السوفييتى.

والآن، فبرغم الجهود المبذولة حالياً فى أوروبا الشرقية من أجل تحرير الانسان، وبرغم التهديـد العسكرى فى الشرق الأقصى (الذى يتمثـل فى الصين)، فان الاتحـاد السوفييتى بدلا من ان يسارع الى مهادنة ولو موقتة فى " الحرب الباردة "، فقد استخرج شكـلا جديداً " للتعايش " لا بد ان يكون له رد فعله لدى الغرب، لأن المقصود به حقيقة، هو تحقيق الهدف الاستراتيجى الأساسى للشيوعية، الا وهو الانهيار الاقتصادى والسياسى والمعنوى لخصمه الرئيسى فى الأيديولوجية.

ملابسات عزل ثلاثة من قادة الحزب في الجمهوريات الاتحادية

بقلم: سليمان تكينر

عقدت اللجنة المركزية للحزب الشيوعى التركمانى مؤتمراً عاماً فى ٢٤ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٦٩، وناقشت فيه الخطة الاقتصادية لجمهورية التركمان السوفييتية وميزانيتها العامة لعام ١٩٧٠ . والى جوار ذلك نوقشت " مسائل تنظيمية " . وحضر هذا الاجتماع ا. ف. كابيتونوف احد سكرتيرى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى، بوصفه مفوضاً عن موسكو. وكما كان متوقعاً، لم ينشر شيء مما قاله كابيتونوف فى الاجتماع ومع ذلك فان جوهر ما قاله لم يكن خافياً. فبناءاً على توصياته تم فوراً عزل ياليش اوفيزوف سكرتير اللجنة وعضو المكتب السياسى للحزب التركمانى، واحل مكانه محمد نازار جابوروف، الذى كان رئيساً لمجلس وزراء جمهورية التركمان منذ عام ١٩٦٣ (وهو المنصب الذى كان قد حصل عليه بناءاً على اقتراح كابيتونوف) (١).

ولم يذكر شيء عن أسباب طرد اوفيزوف فى التقرير المختصر الصادر عن الاجتماع. ولم يعرف هو شيئاً عنها الا فى اليوم التالى حين انعقدت الدورة السادسة للمجلس السوفييتى الأعلى لجمهورية التركمان. إذ أفضى رئيسه ا. كليتشيف لأعضاءه بأن السكرتير الأول للحزب قد أعفى من منصبه بسبب " تقصير خطير فى عمله " . وفى هذا الاجتماع أيضاً تم اعفائه من أعماله كعضو فى المكتب الدائم للمجلس السوفييتى الأعلى لجمهورية التركمان . وهكذا فى ساعات قليلة جرد أقوى رجل فى الجمهورية من كل قواه الحقيقية(٢).

---

(١) "توركمانسكايا ايسكرا"، اشخباد ، ٢٥ ديسمبر (كانون الأول)، ١٩٦٩ .
(٢) المرجع السابق، ٢٦ ديسمبر (كانون الأول)، ١٩٦٩ .

وقبل ذلك بشهور قليلة، فى ١٤ يوليو (تموز) ١٩٦٩، كانت اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الأذربيجانى قد عقدت مؤتمرها العام. وبعد مناقشة " مسائل تنظيمية " أيضاً، أعفى ولى اخوندوف من منصب السكرتير الأول ومن عضوية المكتب الدائم للجنة المركزية " بمناسبة انتخابه نائباً لرئيس أكاديمية العلوم الأذربيجانية ". وأحل مكانه حيدر علييف، الذى كان رئيساً للجنة أمن الدولة للجمهورية. ومما يجدر ملاحظته ان هذا التغيير أيضاً حدث فى حضور كابيتونوف (٣).

أما الضحية الثالثة لمناقشة " المسائل التنظيمية " فى حضور كابيتونوف، فقد كان فى هذه المرة ى. ن. زاروبيان السكرتير الأول للجنة المركزية للحزب الشيوعى الأرمينى، الذى أعفى من منصبه فى اجتماع اللجنة المركزية للحزب الأرمينى المنعقد فى ٥ فبراير (شباط) ١٩٦٦، وأحل مكانه ا. ى. كوتشينيان، الرئيس السابق لمجلس وزراء جمهورية أرمينيا السوفييتية (٤).

والآن دعنا نبحث بايجاز تلك الظروف والملابسات التى أحدثت فيها تلك التغييرات بايعاز من موسكو. ولنبدأ باقدمها.

فى أرمينيا، كانت هناك أزمة تعود الى عام ١٩٦٥ بين زاروبيان ولجنة التخطيط الحكومية للجمهورية وفرعها للصناعات المعدنية الغير حديدية، بسبب مقررات العمل العالية الغير واقعية التى فرضتها موسكو على انتاج النحاس ذو الأهمية الاستراتيجية. ومن باب الانصاف، فان هاتين اللجنتين الأرمينيتين لم تفرضا هذه المقطوعيات العالية — التى تحملتا مسئوليتها — الا تحت ضغط عنيف من السلطات المركزية فى موسكو. وكانت اعتراضات قادة الحزب الأرمينى موجهة فى الأغلب الى لجنة التخطيط الحكومية للاتحاد السوفييتى. ومن أهم ما كتب فى هذا المضمار مقالة بقلم ل. خاراجيان كبير الخبراء الاقتصاديين فى مجمع الاوردى لصناعات النحاس الكيمائية بعنوان " خططوا الانتاج تخطيطاً سليماً " ونشرت فى الصفحة الأولى من صحيفة "كومونيست" التى تصدرها اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الأرمنى فى مناسبة اعفاء زاروبيان (٥)، (ومما يجدر قوله ان هذا المجمع يعتبر المنتج الرئيسى للنحاس فى أرمينيا، وواحد من المشروعات القليلة من نوعه فى الاتحاد السوفييتى بأكمله). وقال خاراجيان فى مقالته تلك ان السبب فى ان العمال التعدينيين الكيمائيين لم

---

(٣) "باكينسكى رابوتشى"، باكو، ١٥ يوليو (تموز)، ١٩٦٩.
(٤) "كومونيست" يريفان، ٦ فبراير (شباط)، ١٩٦٦.
(٥) المرجع السابق، ٢٧ يناير (كانون الثانى)، ١٩٦٦.

يستطيعوا ان ينجزوا أكثر من ٩٧,٢ بالمئة من خطة السنة الماضية للانتاج " يعود أساساً الى سوء التخطيط" . ثم قال : " ان السلطات العليا اعتمدت الخطة دون تقدير سليم لقدرة المجمع وللفرص السانحة للاستفادة من المصادر والطاقات التى لم تستغل بعد . بل ان القرارات التى أصدرتها اللجنة المركزية للحزب فى سبتمبر (أيلول) الماضى (أى ١٩٦٥)، والتى منحت المشروع درجة عظيمة من الاستغلال الاقتصادى، لم تمنع لجنة التخطيط الحكومى لجمهورية أرمينيا وفرعها للصناعات المعدنية الغير حديدية من رفع أهداف الخطة لعام ١٩٦٦، الخاصة بالمجمع، إلى مستويات عالية جداً . وزادت مقررات انتاج النحاس بنوع خاص بمقدار الثلث. ومن الجلى الآن ان خطة هذا العام لانتاج النحاس السق (الصلب) يهددها الفشل " . ومقالة أخرى مماثلة كتبها ميليكوميان سكرتير لجنة الحزب فى مصنع يريفان للتعليب، بعنوان " فلنعد الى موضوع التخطيط السىء " ونشرت فى صحيفة " سوفيتيكان خاياستان " (أرمينيا السوفييتية) التى تصدرها اللجنة المركزية للحزب الأرمينى، وظهرت بعد مقالة خاراجيان بوقت قصير(٦) .

واهتمت جريدة " برافدا " كذلك بقضية أجهزة التخطيط المركزية وتناولتها فى مقالتها الافتتاحية فى عدد ٢٤ يناير (كانون الثانى) ١٩٦٦ فى مقال عنوانه " لمصلحة جميع شعوب الدولة " . ونقلته عنها صحيفة "كومونيست" الأرمينية فى عددها الصادر فى اليوم التالى . وتوجه هذه المقالة الافتتاحية نقداً لاذعاً الى ما اسمته " السندكالية الفوضوية " (وهو تعبير يستعمل فى الاتحاد السوفييتى فى وصف اتجاهات عدم الاذعان لتعليمات السلطات المركزية فى موسكو — والسندكالية مذهب اشتراكى متطرف كان ينادى بأن تتولى نقابات العمال ادارة شئون الانتاج دون تدخل السلطات الحكومية)، وكذلك وجهت نقدها اللاذع الى ما اسمته " التزمت "، " والتفكير الأقليمى الضيق "، ثم تقول : " حصلت الآن الجمهوريات الاتحادية على حقوق جديدة فى مجالات التخطيط ورأس المال والبناء والمالية والعمال والأجور، وعظم دور لجان التخطيط الحكومية للجمهوريات الاتحادية، حتى يتم التخطيط الاقليمى بطريقة سليمة، وتستغل المصادر الطبيعية والعمالية لهذا الاقليم أو ذلك الى أقصى الامكان . وأصبح على لجان التخطيط الحكومى للجمهوريات ان تعد خططاً اقتصادية وطنية تضم الصناعات التى تشملها الادارة الاتحادية والجمهورية، وكذلك تلك التى تشرف عليها الادارة الجمهورية فقط. وكذلك اعداد المقترحات لمشروع خطط الانتاج للمشروعات الموجودة على الأرض الأقليمية للجمهورية

---

(٦) "سوفيتيكان خاياستان"، يريفان، ٤ فبراير (شباط)، ١٩٦٦ .

والتى تخضع للادارة الاتحادية . والنظام الجديد لا يسمح بأن تصنف المشروعات الصناعية فى الجمهوريات الاتحادية الى مشروعات ' لنا ' ومشروعات ' لهم ' "(٧).

والصناعات المعدنية الغير الحديدية من الناحية الرسمية تتبع سلطات الجمهورية الاتحادية (الاقليمية)، وهو ما يعنى ان خطط انتاجها توضع بالتنسيق بين الحكومات المحلية فى الجمهوريات وبين الحكومة المركزية فى موسكو. ولما كان الاستهلاك المحلى بسيط، فمن الواضح ان الانتاج الهائل من النحاس فى أرمينيا يرسل الى خارجها . ولكن ليس واضحاً، ما اذا كانت الحكومة المركزية تشتريه من أرمينيا بسعر مناسب لتساعدها على تنفيذ برنامج التوسع الضخم فى انتاج النحاس أم لا . وأغلب الظن ان هنا عقدة الأزمة الحقيقية . ومع ذلك فقد رأت جريدة " برافدا " أنه لا مانع من ان تعلن على الملأ — ولكن دون ان تسوق دليلا واضحاً على ما تقول — ان " خطة تنمية الاقتصاد القومى للاتحاد السوفييتى لعام ١٩٦٦ . . . تعكس بوضوح النموذج الحى للسياسة القومية اللينينيـة "(٨).

وفى خلال انعقاد المؤتمر الرابع والعشرين للحزب الشيوعى الأرمينى فى ٣ مارس (آذار) ١٩٦٦، تعرض زاروبيان لهجوم عنيف، وتحدث خلفه كوتشينيان منبهاً جميع منظمات الحزب فى الجمهورية بما فيها اللجنة المركزية لكى تأخذ العبرة من القرارات التى أصدرتها اللجنة المركزية فى اجتماع جمعيتها العمومية فى ٥ فبراير (شباط)، فقال: " ان اجتماع الجمعية العمومية قد كشف أخطاءاً خطيرة وتقصيرات فى طريقة ومناهج العمل للسكرتير الأول السابق الرفيق زاروبيان . وهى أخطاء لا يمكن الا ان يكون لها أثر سلبى على تدريب الأفراد، وبوسيلة ما، على سير العمل فى الجمهورية "(٩).

وأكد كوتشينيان على الحاجة الى "زيادة كبيرة فى النظام والطاعة للحزب والحكومة"، واتهم زاروبيان بأنه " خرج على وضع الحزب المبدئى فوق الأفراد "، ثم وعد بأن القادة الجدد للحزب الأرمينى سوف ينفذون تعليمات موسكو " دون انحراف عن جادة الصواب "(١٠).

---

(٧) "برافدا"، ٢٤ يناير (كانون الثانى) ١٩٦٦، "كومونيست"، يريفان، ٢٥ يناير (كانون الثانى)، ١٩٦٦ .
(٨) نفس المرجع السابق .
(٩) "كومونيست"، يريفان، ٤ مارس (آذار)، ١٩٦٦ .
(١٠) نفس المرجع السابق .

قضى ولى اخوندوف ثلاثة عشر عاماً فى منصب السكرتير الأول للجنة المركزية للحزب الشيوعى الأذربيجانى قبل ان يعفى منه . وكان قد تقلد هذا المنصب فى يوليو (تموز) ١٩٥٦ نتيجة لحملة التطهير التى قامت فى أعقاب المؤتمر العام العشرين للحزب، فى بداية تلك السنة. وكان سبب هذه الحملة هو ان المكتب الدائم للجنة المركزية للحزب الأذربيجانى برئاسة إمام مصطفايف، السكرتير الأول وقتئذ، كان قد قرر ادخال اللغة الأذربيجانية كمادة اجبارية، بجوار الروسية، فى جميع المدارس فى الجمهورية بدون استثناء سواء فى المدارس الروسية أو الأرمينية(١١). (تصادف حدوث نفس الشىء فى لاتفيا أيضاً.) واتخذ عدد من المثقفين الكبار فى الحزب الشيوعى الأذربيجانى فى ذلك الوقت، موضوع اللغة هذا فرصة للتعبير عن ضيقهم بموسكو. ومن أطيب الأمثلة لذلك مقالة نشرت فى صحيفة الحزب "كومونيست" الصادرة فى باكو كتبها ميرزا ابراهيموف الكاتب والروائى الذى تقلد مناصب رئيس المجلس السوفييتى الأعلى لجمهورية اذربيجان، وعضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الاذربيجانى. وكان عنوان المقالة، " اللغة الاذربيجانية فى المعاهد الحكومية "، واستعرض فيها السياسة الثقافية المطبقة فى الجمهورية وقال مذكراً القراء: " اعتاد لينين وصف روسيا القيصرية بانها 'سجن الشعوب'، لأن القيصرية بكل بربرية وهمجية انكرت حقوق الشعوب الغير روسية، وطبقت سياسة ترويس فاضحة بل أنها تمادت فى غيها الى حد أثارة العداوة والفتنة بين الشعوب، وذلك من أجل تحطيم الشعوب الغير روسية وطمس مقوماتها و'تذويبها' فى الامبراطورية. والقيصرية قد أرسخت هذه الصفات فى الروسى حتماً "(١٢).

ثم يقرر ابراهيموف:

" ان تاريخ الحكومات الاستبدادية يبين ان القوة والضغط ينشران النفاق والرياء والشك وعدم الثقة فى أرجاء المجتمع دائماً. فالصداقة غير ممكنة بين أمة معتدية وأمة معتدى عليها. وحتى الكلمات والعبارات المهذبة الرفيعة تصبح اطاراً فى هذه الحالة(١٣).

وليس هناك من شك فى ان هذه الملاحظات كانت موجهة فى حقيقتها الى موسكو، فقد استطرد ابراهيموف دون مواربة قائلا: " خلال السنوات العشر الأولى للحكم السوفييتى، كانت لغتنا القومية تلقى احتراماً خاصاً فى المؤسسات الحكومية فى جمهوريتنا. اما فى

---

(١١) "باكينسكى رابوتشى"، ٢٧–٢٩ مارس (آذار)، ١٩٥٩ .
(١٢) "كومونيست"، باكو، ٢٨ اكتوبر (تشرين الأول)، ١٩٥٦ .
(١٣) نفس المرجع السابق .

الخمسة عشر أو العشرين عاماً الماضية، فقد ارتكبت انتهاكات شاملة، ولوحظ ان مؤسسات معينة وموظفين معينين قد خالفونا واتخذوا موقفاً مغايراً تجاه اللغة الاذربيجانية. فلا شيء يمكن ان يقال عن تلك الحالات التى تقدم فيها الطلبات باللغة الأذربيجانية، فاما ان يأتى الرد عليها بلغة أخرى غير اللغة القومية، أولا يأتى رد البته "(١٤).

وفى الحقيقة فان ابراهيموف كان قد أخذ نقد خروشتشوف لسياسة ستالين بشأن "الشعوب الصغيرة" و "التذويب" فى أعقاب المؤتمر العشرين للحزب، من وجهها السطحى، وحاول ان يخرج باستنتاجات ملتوية للتأثير الروسى على اللغة والثقافة الاذربيجانية، ولم يدهش أحد حين جرد من جميع سلطاته كنتيجة لتصرفه ذلك.

ولم يدهش أحد أيضاً حين خلفه ولى اخوندوف السكرتير الأول للجنة المركزية المنتخب حديثا، — الذى قام بنشاط واسع "لتصحيح الأخطاء الواقعة"، والذى وقف يتحدث فى المؤتمر الرابع والعشرين للحزب الشيوعى الأذربيجانى فقال:

"اننا ملتزمون بان نرعى كما نرعى حبة العين، تقاليد الحزب الأذربيجانى المجيدة بين الأمم، وان ندعمها، ونجاهد كل يوم فى تربية العمال على روح الأخوة والصداقة المتينة بين الشعوب. وهذا هو الآن أهم هدف لنا نظراً الى ان أبشع الأخطاء التى ارتكبتها القيادة السابقة للجنة المركزية للحزب الشيوعى الأذربيجانى كانت، كما سبق ان أعلن فى الاجتماع التاسع للجمعية العمومية [الاجتماع الذى انعقد فى يوليو (تموز) ١٩٥٦ للجنة المركزية، والذى عزل فيه ابراهيموف]، قد أظهرت تراخى وتهرب من الاهتمام بالمسائل الخاصة بالتربية الدولية للعمال. وأشير فى هذا الاجتماع بالتحديد الى ان مكتب اللجنة المركزية للحزب الأذربيجانى قد فشل فى ان يبين نضجاً سياسياً عندما اتخذ قراره الخاص بمسألة اللغة. وأنه كان مهملا فى اداء دوره الارشادى فى الحياة الأيديولوجية والسياسية للجمهورية "(١٥).

وقرر اخوندوف ان "التنظيم الحزبى، فى تركيبه، كان دائماً تنظيماً أقليمياً". ولذلك رأى أنه كان من الواجب ان تجعل اللغة الأذربيجانية مادة اختيارية فى المدارس الغير أذربيجانية بدلا من جعلها اجبارية(١٦). وتأكيداً لهذه السياسة الجديدة صدرت عدة تشريعات بحجة "تصحيح" ما تحدثوا عنها من "أخطاء"، وشملت مسألة تدريس اللغة، وزيادة الوقت المخصص للبرامج الروسية فى الاذاعة الاذربيجانية مع الاكثار من المحاضرات

---

(١٤) نفس المرجع السابق.
(١٥) "باكينسكى رابوتشى"، ١٧ ديسمبر (كانون الأول)، ١٩٦٠.
(١٦) نفس المرجع السابق.

والأحاديث عن الصداقة بين شعوب الاتحاد السوفييتى و "انتصار سياسة لينين تجاه القوميات".

وبالرغم من ذلك فقد استمر المثقفون الاذربيجانيون فى تمجيد لغتهم القومية حتى فى وجود أخوندوف. ونشرت المجلة الشهرية "اذربيجان"، التى يصدرها اتحاد كتاب الجمهورية، قصيدة للشاعر الأذربيجانى "خالى رضا" — أسماها "لغة أهلى" — يحكى فيها الشاعر عن حبه للغة قومه، لغة أمة، وكيف بدأ يحبها وهو لا زال فى المهد طفلا(١٧). وأخذ يصف اللغة الأذربيجانية بأنها لغة الشاعر العظيم "فضولى"، وانها "لواء الفن الشرقى" وانها "كالشمس فوق أرض أذربيجان"، ثم أعلن أنه لن ينبذ سطراً واحداً مما كتبه اسلافه ولو فى مقابل كل كنوز الأرض. وكان أسوأ ما فى الأمر احتجاج الشاعر عل هؤلاء الذين ينزلون باللغة الأذربيجانية الى مجرد جعلها تابعة للغة الروسية. وكان شيئاً طبيعاً ان يثير ذلك كله غيظ الشيوعيين الرجعيين فى أذربيجان، وعلى رأسهم أخوندوف الذى اتهم "رضا" وزميله "باناخ خليلوف" "بالخيلاء والترفع القومى"، وذلك أثناء اجتماع اللجنة المركزية للحزب فى أغسطس (آب) ١٩٦٢ الذى كان مخصصاً لبحث قضايا أيديولوجية. ثم يقول أخوندوف: "ان اتحاد كتاب أذربيجان، وخصوصاً صحيفة 'أذربيجان' والجريدة 'ليتيراتور اى اسكوسستفو' الذين ينحصر واجبهم على تربية النشىء على روح الاخلاص المتناهى للشيوعية، ومكافحة مظاهر الشعوبية والاقليمية، قد فشلتا فى اماطة اللثام عن أولئك الذين لا يزالوا يتعلقون بمخلفات الماضى"(١٨).

وكذلك تعرضت أشعار رضا الى نقد قاس من رئيس اتحاد كتاب أذربيجان "مهدى حسن" فى مقالة افتتاحية فى "ليتيراتور اى اسكوسستفو" بعنوان "مصدر السرور والالهام". وابرز حسين راى رضا عن ان اللغة الأذربيجانية كانت لغة فضولى، أنه لن يبدل سطراً واحداً من شعر اسلافه ولو فى مقابل كنوز الأرض جميعها، وخرج منها بأن مثل هذه الأفكار لهى الدليل على الخيلاء والترفع القومى الضار. ثم يقول ان كتابات رضا "فجة"، "وليس فيها شىء مشترك مع الأيديولوجية السوفييتية"، وانها سعت الى تأثير ضار على الأدب والفن. ومن الثابت ان الشاعر لم يتلق تربية سياسية وأيديولوجية سليمة، ثم

---

(١٧) "اذربيجان"، باكو، ١٩٦٢، رقم ٣.
(١٨) "باكينسكى رابوتشى"، ٣٠ أغسطس (آب)، ١٩٦٢.

يستطرد: "ان هذه الأشعار تثبت بما لا يدع مجالا للشك، ذلك التفكير المحدود والفهم الناقص للعالم الخارجى عند شاعر فشل فى استيعاب المثل الفنية للشعر السوفييتى"(١٩).

ولم يمنع حسين وصفه للشعر الأذربيجانى بأنه "ترفع قومى" من ان يمتدح الشعر الروسى ويسبح بحمده فى كل مناسبة، وان يستعمل الفاظاً مثل "القيصرية الروسية"، و"شموس فى أفق الأدب الروسى". ثم يقارن حسين بين أشعار رضا وأشعار زميله الشيوعى "الموهوب" سليمان رستم(٢٠). وكان رستم قد عبر فى احدى قصائده وهى "الخطاب ذو الأمضاء" عن أنه يتلقى منذ وقت طويل خطابات لا حصر لها من أفراد الجمهور تنتقد أعماله نقداً قوياً وتنتقد الطريقة التى أهينت بها اللغة الأذربيجانية. وذكر فى واحد من تلك الخطابات الى رستم ان كتاباته خلال الأربعين سنة الماضية كانت مضيعة للوقت(٢١). وليس هناك أدنى شك فى ان هذه الخطابات تمثل الآراء الصادقة لشعب أنكر أى أسلوب آخر للتعبير (غير لغته).

وكان تأثير الدعايات "البرجوازية القومية" بين الأهالى من القضايا التى أهتم بها قادة الحزب الاذربيجانى أيضاً. فوقف س. ك. تسيفجون رئيس لجنة أمن الدولة للجمهورية يشكو أمام المؤتمر السابع والعشرين للحزب الأذربيجانى من ان تلك الدعايات تحدث انطباعات سيئة لدى "مواطنين يفتقرون الى تربية سياسية كافية" و"أشخاص تنحنى هاماتهم أمام كل ما هو أجنبى"(٢٢). ثم بعد ذلك بوقت قصير وقف أخوندوف نفسه أمام المؤتمر الثانى والعشرين للحزب لجميع الاتحاد يحذر قائلا:

"... توجه الدعايات البرجوازية ضد سياسة حزبنا تجاه القوميات، وضد الصداقة بين الشعوب. ويظهر بقايا البرجوازيين القوميين بنوع خاص، همة كبيرة فى هذا المجال، وهم الذين يتفانون فى خدمة من يدفعون لهم كل شىء من أجل الافتراء على الشعب السوفييتى بما فيه الشعب الأذربيجانى... هؤلاء السادة يغنون فى كل المقامات قصائد المديح فى فردوس القوميات، التى يزعمون ان الثورة ازالتها"(٢٣).

ومع ذلك لم يكن الكرملين بعد عزل خروشتشوف راضياً عن أخوندوف. وواجه قادة الحزب الاذربيجانى فى اجتماع اللجنة المركزية للحزب لجميع الاتحاد فى مايو (أيار) ١٩٦٦

---

(١٩) "ليتيراتورا اى ايسكوسستفو"، باكو، ٨ سبتمبر (أيلول)، ١٩٦٢.
(٢٠) نفس المرجع السابق.
(٢١) المرجع السابق، ١١ أغسطس (آب)، ١٩٦٢.
(٢٢) "باكينسكى رابوتشى"، أول مارس (آذار)، ١٩٦٦.
(٢٣) المرجع السابق، ٣ ابريل (نيسان)، ١٩٦٦.

توبيخاً عنيفاً بسبب التناقض المستمر فى المحاصيل الزراعية وخاصة محصول القطن، مع ان موسكو كانت تعلم ان اللوم يقع الى حد كبير على عوامل موضوعية(٢٤). فقبل ذلك بسنة، وفى اجتماع اللجنة المركزية للحزب لجميع الاتحاد فى مارس (آذار) ١٩٦٥، ذكر أن أكثر من ٤٠ بالمئة من أراضى الرى فى الجمهورية كانت فى حاجة الى نظام صرف عرضى. وقال أخوندوف محذراً من أنه ان لم تنفذ هذه الاصلاحات فى هذه الأراضى، فانه سيكون من الصعب الاحتفاظ بحالة زراعات القطن وزراعات أخرى(٢٥). وكان برجنيف أيضاً قد أكد الحاجة الى هذه الاصلاحات. وكذلك فى اجتماع اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الأذربيجانى فى يونيه (حزيران) ١٩٦٦ أرغمت هذه اللجنة على ان تنقد نفسها، وأعلن اخوندوف: "اننا يجب ان نتبين ما قصرنا فيه وهو ما أشار إليه الرفيق برجنيف محقاً فى اجتماع مايو (أيار) للجنة المركزية للحزب الشيوعى للاتحاد السوفييتى"(٢٦). ووجه برجنيف هجومه الشديد مرة أخرى ضد قادة الحزب الأذربيجانى خلال اجتماع اللجنة المركزية للحزب لجميع الاتحاد فى اكتوبر (تشرين الأول) ١٩٦٨ الذى خصص لمتابعة تنفيذ القرارات الزراعية التى اعتمدها المؤتمر الثالث والعشرين للحزب واللجنة المركزية للحزب. فقال السكرتير العام للحزب: "اقتطعت السلطات المحلية فى أذربيجان مبلغ ٣١٠٠٠٠٠٠ روبل من اعتمادات الميزانية الزراعية لعام ١٩٦٧ وانفقتها على بناء مساكن وطرق مواصلات تحت الأرض فى باكو"(٢٧).

وظهر عدم رضاء موسكو كذلك عن الأوضاع فى أذربيجان عن طريق ما أدلى به "عليف" الذى خلف أخوندوف — فى اجتماع اللجنة المركزية للحزب الاذربيجانى فى أغسطس (آب) ١٩٦٩. فبرغم ان محور الاجتماع كان "التحضير للاحتفال بالذكرى المئوية لميلاد لينين"، الا ان عليف انهمك فى حديث طائل عن كل شىء(٢٨). فقد تحدث على سبيل المثال عن "الاهتمام الشديد للجنة المركزية بالتناقض المستمر فى انتاج البترول"، والذى وصفه بأنه "أكبر الأخطار لما له من رد فعل يؤثر فى قطاعات مرتبطة به مثل مصانع التكرير والصناعات الكيماوية". وكذلك قال عليف أنه فى السنة الحالية "لم تنفذ واحدة من وزارات أو ادارات النقل الخطة كاملة". و "سنة بعد

---

(٢٤) "برافدا"، ١١ يوليو (تموز)، ١٩٦٦.
(٢٥) "اجتماعات الجمعية العمومية للجنة المركزية للحزب الشيوعى للاتحاد السوفييتى"، التقرير الاختزالى، ٢٤–٢٦ مارس (آذار)، ١٩٦٥، موسكو، ص ١٢٢.
(٢٦) "باكينسكى رابوتشى"، ٢٨ يونيه (حزيران)، ١٩٦٦.
(٢٧) "برافدا"، ٣١ اكتوبر (تشرين الأول)، ١٩٦٨.
(٢٨) "باكينسكى رابوتشى"، ٧ أغسطس (آب)، ١٩٦٩.

سنة يزداد الفشل فى تحقيق خطة بناء المدارس والمنشآت التربوية للأطفال . فلم يتم بناء واحدة من الأحدى عشرة مدرسة التى كان المفروض ان تتم خلال النصف الأول من العام الدراسى " . " وان الجمهور أيضاً كان محقاً حين انتقد حالة التجارة والخدمات " . " ان العمال يشكون من أعطائهم القليل من كل شيء ومن انحطاط مستوى الخدمات، ومن عدم النظام فى أسواق الكولخوز حيث لا ضابط ولا رقيب على تصرفات البائعين والمضاربين " . ثم تحدث عليف عن حالات الرشوة التى انتشرت حتى المعاهد التعليمية العليا . وقال أنه منذ وقت قريب تم التحفظ على " طالب العلوم " ر. سعيدوف والمدرس ب. عسكروف بتهمة الرشوة أثناء الامتحان السنوى للمعهد الاذربيجانى لمعلمى اللغة . ويستمر عليف فى سرد قصص مماثلة عن موظفين كبار " لا يراعون بما فيه الكفاية " حسن استخدام مواد البناء، ويستخدمونها " بطريق غير قانونى " فى بناء الاستراحات الخاصة . وأكدت المعلومات التى جمعتها لجنة الشعب للرقابة الادارية ان " احد مديرى مصانع الخرسانة وقطع المبانى الجاهزة وهو اصفروف، قد بنى لنفسه استراحة خاصة من طابقين، وقام بتوريد وبيع منتجات رديئة التصنيع وغير موافية لشروط المستلم " . وفى نفس الظروف قام مكتب اللجنة المركزية للحزب بطرد مدير شركة البناء من الحزب، لأنه " استغل سلطات وظيفته وبنى لنفسه استراحة خاصة، أخذت منه فيما بعد " . وخص عليف مسألة العمل الأيديولوجى باهتمام كبير فى خطابه هذا، وتحدث عن الحاجة الى " ضمان تعاون جميع وسائل التأثير الأيديولوجى على الجماهير " . وشكاً من ان " مظاهر التفكير القومى الضيق لا زالت تظهر بين الحين والآخر " . ومن ان " بعض الأفراد من العمال المنتجين " لا زالوا لا يستخدمون مواهبهم دائماً ليخرجوا عملا ممتازاً على المستوى الأيديولوجى اللازم .

أما " التقصير الخطير " الذى أدى الى أعفاء ب. اوفيزوف السكرتير الأول للجنة المركزية للحزب الشيوعى التركمانى، فانه يمكن معرفته من التصريحات التى أدلى بها خلفه م. جابوروف، وخصوصاً فى خطابه أمام اللجنة المركزية للحزب التركمانى فى اجتماعها فى أخر يناير (كانون الثانى) وكان مخصصاً لبحث دور الحزب فى زيادة أهمية عمل المرأة فى البناء الشيوعى(٢٩) . وخطاب أخر ألقاه فى اليوم التالى فى اجتماع مندوبى المزراع الجماعية فى الجمهوريات وكان عن " التقدم الحاصل فى الوفاء بالضرورات الاشتراكية فى عام ١٩٦٩، والواجبات التى على المزارع الجماعية والحكومية فى الجمهوريات الايفاء بها

(٢٩) "توركمانسكايا ايسكرا"، ٢٨ يناير (كانون الثانى) ، ١٩٧٠ .

فى عام ١٩٧٠ "(٣٠). وتحدث جابوروف عن نقطة حساسة، وهى ان محصول القطن الخام فى السنوات الثلاث السابقة قد نقص حوالى ٧٠٠٠٠٠ طن. "مع ان ظروف الانتاج تتحسن باستمرار فى المزارع الجماعية والحكومية، وبالرغم من ان قاعدة وضعت لزيادة المحاصيل وانتاج المواشى". وكذلك قال جابوروف أنه "لم يكن هناك أى نمو". ولم ينجز أكثر من ٧٣ بالمئة فقط من خطة انتاج الاقطان الممتازة. وهناك حالات من سوء التصرف فى أراضى الرى أدت الى ابادة المحصول فى عشرات الألوف من الهكتارات بفعل الرياح ونحر المياه. وكان مستوى زراعة الحبوب منخفضاً، فلم يتعد محصول الهكتار ٠,٨ طن (مترى) فى المتوسط. ومحصولات الخضر كانت هى الأخرى منخفضة مما ترتب عليه عدم الوفاء بمقررات الانتاج والمبيعات الى الحكومة. وأظهر انتاج المواشى هبوطاً حاداً، مما دعا اللجنة المركزية لجميع الاتحاد وبرجنيف شخصياً الى "انتقاد انخفاض انتاج الألبان فى الجمهورية". ونقص عدد قطعان الماشية بنوع خاص. ثم أضاف جابوروف: "اننا لا نستطيع ان نقتصر على انتاج القطن، فهناك قطاعات أخرى مثل زراعة الفواكه والكروم قد أهملت"(٣١).

وتحدث جابوروف أمام اللجنة المركزية للحزب التركمانى عن بعض المسائل مثل "القضاء على التقصير وعلى الأخطاء فى التربية الأيديولوجية للعمال" و "تقوية النضال ضد مظاهر السلوك الاقطاعى تجاه المرأة" و "تحسين العمل القائم لدحر مخلفات الماضى". ثم نبه جابوروف الى أنه برغم القرارات المتكررة التى اتخذتها اللجنة المركزية التركمانية واللجنة المركزية لجميع الاتحاد فى عام ١٩٦٠، فان شيئاً فى هذا المجال لم يتم. وهكذا فقد قام يردد المطالبة "بتشديد النظام والطاعة للحزب والحكومة" التى سبق الحديث عنها فى اجتماع اللجنة المركزية للحزب لجميع الاتحاد فى ديسمبر (كانون الأول) ١٩٦٩(٣٢).

وكان أ. أ. زوبكوف رئيس القسم فى ادارة الدعاية التابعة للجنة المركزية للحزب لجميع الاتحاد هو المعبر عن ضيق موسكو بسير الأحوال فى تركمانيا فى خطابه أمام اللجنة المركزية للحزب التركمانى. وطالب "بمضاعفة الجهود لارساخ أسلوب الحياة السوفييتية"، و "النهوض بالدعاية المناهضة للدين" بما فيها "العمل المخطط تخطيطاً جيداً، والعمل المقنع لكشف القناع عن عقائد القرآن والشريعة"(٣٣).

---

(٣٠) المرجع السابق، ٣٠ يناير (كانون الثانى)، ١٩٧٠.
(٣١) نفس المرجع السابق.
(٣٢) المرجع السابق، ٢٩ يناير (كانون الثانى)، ١٩٧٠.
(٣٣) نفس المرجع السابق.

وهكذا يتبين لنا ان الأسباب المباشرة لعزل هؤلاء القادة الحزبيين الثلاثة فى الجمهوريات تختلف اختلافاً مبيناً من " التزمت " و " السندكالية الفوضوية " و " ضيق التفكير الاقليمى " و " الخيلاء والترفع القومى "، الى القيادة العاجزة التى يكشف عنها عدم انجاز الخطط الاقتصادية، والفساد والرشوة الممتدة الى أعلى مستويات البيروقراطية فى الحكومة والحزب، ومظاهر " مخلفات الماضى "، والفشل فى ارساخ " أسلوب الحياة السوفييتية "، و " التقصير والأخطاء " فى العمل الأيديولوجى. وفى الحقيقة، فربما لا تكون هذه الاتهامات أكثر من ادعاءات يتعلل بها برجنيف ليخلص نفسه من المسئولية أمام المسئولين فى الحزب الذين اشتركوا مع خروشتشوف فى قيادته. ومع ذلك فهناك حقيقة لا ينبغى ان نغض النظر عنها، وهى ان الأحزاب الشيوعية فى الجمهوريات الاتحادية تعانى من ضياع حقوقها تحت سيطرة موسكو. إذ ان ما لها حقوق طبقاً لقوانين الحزب، تماثل ما للجان الاوبلاست (الاقليم أو الاقسام الادارية فى حدود الجمهورية) فى جمهورية روسيا الاشتراكية الفدرالية السوفييتية. بل ان حقوق الأحزاب فى الجمهوريات ولجان الاوبلاست ورد ذكرها فى نفس الفقرة الواحدة من لائحة الحزب الداخلية. ويعود هذا الوضع الى تاريخ انعقاد المؤتمر الثامن للحزب الشيوعى الروسى للبلشفيك عام ١٩١٩، الذى لم يوافق على انشاء اتحاد فيدرالى من أحزاب شيوعية مستقلة، رغبة فى انشاء حزب " موحد مركزى " تكون فيه اللجان المركزية للأحزاب الغير روسية " تابعة تبعية تامة الى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الروسى "(٣٤).

---

(٣٤) "الحزب الشيوعى للاتحاد السوفييتى والتوصيات والقرارات التى أصدرتها مؤتمرات الحزب، واجتماعات الجمعية العمومية للجنة المركزية، ١٨٩٨–١٩٥٣"، الطبعة السابعة، الجزء الأول: ١٨٩٨–١٩٢٥، موسكو، ١٩٥٣، ص ٤٤٣.

الكتّاب السوفييت فى النضال من أجل حرية الفكر

بقلم: يورى مارين

تتميز الحياة الأدبية السوفييتية المعاصرة بنضال متزايد من أجل حرية الفكر وحرية القلم، فى وجه رقابة حكومية متسلطة تعمل بلا كلل للقضاء على جميع صور وأشكال المعارضة من الرفض الصريح لتعاليم الحزب، الى أدب المقاومة السرى، الى تهريب المخطوطات الى خارج البلاد، الى الرسائل التى تناشد الضمير العالمى، حتى محاولات أقحام بعض الأفكار المعارضة التى تنقد جوانب مختلفة من النظام السوفييتى فى الصحف اللبيرالية.

وهناك كتاب كثيرون تناولوا هذا الحال بصراحة فى مقالاتهم، ومنها مقالة عنوانها "النضال الأيديولوجى: مسئولية الكتاب" نشرتها صحيفة "ليتيراتورنايا جازيتا" (التى يصدرها اتحاد الكتاب السوفييت) تتحدث عن الموقف البطولى الذى اتخذه الكسندر سولجينيتشين حين وجهت ضده حملة قاسية من النقد على أثر ظهور قصته الناجحة "يوم فى حياة ايفان دينيسوفيتش" التى تصور الحياة داخل معتقلات.ستالين من خلال التجربة الشخصية. وكان عليه ان يقاوم لسنين طويلة محاولات جمعيات الكتاب الرسمية لكى تخرس قلمه بكل الطرق الممكنة. ومن هذه المقالة عرف الجمهور السوفييتى لأول مرة من مصدر رسمى، عن الخطاب المفتوح الذى أرسله سولجينيتشين الى المؤتمر الرابع للكتاب السوفييت متضمناً احتجاجه الصارخ على الرقابة وعلى موقف الحزب من قضية الأدب.

فقد ذكرت تلك المقالة ان سولجينيتشين: "أرسل خطاباً الى المؤتمر الرابع للكتاب قبل افتتاحه بأربعة أيام، وارسله فى الوقت نفسه الى ما لا يقل عن ٢٥٠ عنواناً آخر،

بطريقة تنتهك جميع القواعد المقبولة للسلوك . ولا شك انه كان يتصور ان ذلك الخطاب، الذى لم يخضع فى الحقيقة للمراجعة، سوف يعاد توزيعه ويمرر من يد الى يد، ويصبح أحدوثة عصره فى دنيا الأدب(١) .

وركزت المقالة باهتمام شديد على أن سولجينيتشين هو مؤلف مسرحية " وليمة فيكتور" التى ، كما يقولون، تصور الجيش السوفييتى — لا كمحرر الوطن من الفاشية، ولكن كحشد من البلداء والنهابين السلابين الذين لا يسعون الا لمنفعتهم الخاصة . وترى " ليتيراتورنايا جازيتا " ان المسرحية كانت سخية فى وصف حركة التحرير الروسية التى قادها الجنرال فالسوف واتهمت سولجينيتشين بأنه يتهكم على أبطال الاتحاد السوفييتى وبأنه لم يتعاطف الا مع شخصية واحدة فقط من شخصيات المسرحية وهى شخصية " الكابتن نرزنين" الذى ساعد امرأة على ان تتسلل خفية من خلال خط الجبهة وتلحق بجيش فلاسوف. وتشير الصحيفة كذلك الى ان سولجينيتشين هو مؤلف " الدائرة الأولى " التى ، كما يقولون، تنقد أسلوب الحياة السوفييتية .

وعلقت ليتيراتورنايا جازيتا على الأمر بقولها : " ان الدعايات الغربية قد استغلت اسم سولجينيتشين وأعماله جميعها، حتى خطابه الى المؤتمر الرابع للكتاب، فى الصراع الأيديولوجى ضد الاتحاد السوفييتى "(٢) . ثم عبرت عن أسفها لأن سولجينيتشين لم يكف برغم الضغط الرسمى عليه، عن محاربة جمعيات الكتاب السوفييت . وأنه لما أشارت عليه سكرتارية مجلس اتحاد الكتاب السوفييت بأن يوضح موقفه من " الشكوك التى تحيط باسمه واتهاماته بمعاداة الاتحاد السوفييتى "(٣)، قام بطبع وتوزيع رد علنى يؤكد فيه نيته على الاستمرار فى استخدام الرأى العام الغربى، كوسيلة للضغط على اتحاد الكتاب السوفييت. ثم تقرر ليتيراتورنايا جازيتا أنه حتى اليوم لم يزل لا يدرك الحاجة لتجنب " أعداء الوطن الحاقدين "(٤) .

ونشرت ليتيراتورنايا جازيتا مع هذه المقالة خطاباً من سولجينيتشين الى ادارة التحرير يؤكد فيه أنه لم يعط قصته " ولاية السرطان " لأحد لينشرها خارج البلاد . ولكن الظاهر ان موضوع سولجينيتشين قد صار أكثر جدية فى الأيام الأخيرة، فهناك حظر شامل قد فرض على جميع أعماله الأدبية وعلى اجراءات محاكمته. وتقرر ليتيراتورنايا جازيتا

---

(١) ليتيراتورنايا جازينا، ٢٦ يونيه (حزيران) ١٩٦٨ .
(٢) نفس المرجع السابق .
(٣) نفس المرجع السابق .
(٤) نفس المرجع السابق .

فى ختام هجومها على سولجينيتشين أنه "كان فى استطاعته ان يسخر مواهبه الأدبية فى خدمة الوطن، وليس فى خدمة من أعدائه. لقد كان فى استطاعته ان يفعل ذلك ولكنه لم يرد. هذه هى الحقيقة المرة. واذا كان ا. سولجينيتشين يرغب فى ان يجد مخرجاً من الطريق المسدود الذى وضع نفسه فيه، فان ذلك يتوقف أساساً عليه شخصياً"(٥).

وعلى أى حال، فان سولجينيتشين بهذا أو بغيره ليس وحيداً فى نضاله من أجل حرية القلم، فقد انضم إليه مؤخراً الكاتب السوفييتى الذائع الصيت ف. كافيرين. وهنا حرضت ليتيراتورنايا جازيتا مرة أخرى على العمل، فكتبت تقول: "ان ف. كافيرين بادراكه الخاطىء لعدد من الوقائع فى حياتنا الأدبية فى السنوات القليلة الماضية، وبنفس الروح التى حدت بالكاتب ا. سولجينيتشين قبله، قد نشر أعمالا له فى الغرب، وشوه موقف بعض من أعضاء السكرتارية (سكرتارية اتحاد الكتاب) من قضية نشر قصة "ولاية السرطان"(٦).

وبغض النظر عما تحويه هذه المقالة من مغالطات أدبية، فانها تثير الانتباه الى وجود كتاب سوفييت ذوى "ميول تقدمية" يعارضون قادة الحزب، وتعيد الى الذاكرة أحداثاً مشابهة حينما كان رجال الفكر السوفييت يرسلون الخطابات الى محطات الاذاعة الأجنبية يمتدحون فيها "الحفلات الموسيقية".

وبرغم الأحكام القاسية التى صدرت ضد الكتاب سينيافسكى ودانييل، ثم ضد جينزبورج وجالانسكوف ودويرو فولسكى ولاشكوفا، فان رجال الفكر السوفييت لم يكفوا عن نضالهم من أجل الحرية ويواصلون توجيه النداءات الى الرأى العام العالمى. وقام عدد من أشهر الكتاب السوفييت، ومنهم أعضاء فى الحزب وفى الكومسومول، برفع أصواتهم عالية احتجاجاً ودفاعاً عن حرية القلم. ولقد اعترف بهذه الحقيقة الكاتب س. ميخالكوف، السكرتير الأول لمجلس ادارة جمعية كتاب موسكو، والمعروف بولائه للحزب، حين أعلن أمام المؤتمر التاسع عشر للجنة الحزب لمدينة موسكو، عن خطاب احتجاج على الأحكام التى صدرت ضد جينزبورج وزملاءه، موقع من سبعة عشر من كتاب موسكو، وكلهم أعضاء فى الحزب. وأكد ميخالكوف ان بعضاً من كتاب موسكو، وبينهم أعضاء فى الحزب، عنيدون ولا يختارون لأنفسهم الاستنتاجات الصحيحة(٧)،

---

(٥) نفس المرجع السابق.
(٦) نفس المرجع السابق.
(٧) كومسومولسكايا برافدا، ٣٠ مارس (آذار) ١٩٦٨.

وأن الافراط العاطفى فى التحرر لا يزال دون تحكم أو ضبط، وبعضهم لا يتورع عن الزهو والتفاخر " بتقدميتهم " و " جسارتهم "(٨). ويقرر ميخالوف ما هو أكثر من ذلك، وهو ان قادة الحزب قد " حذروا من الأراء التى عبر عنها بعض الكتاب فى الاجتماعات واللقاءات الأدبية المختلفة "(٩). وتشير ليتيراتورنايا جازيتا الى ان سكرتارية مجلس اتحاد الكتاب للاتحاد السوفييتى تستنكر بشدة ذلك الاستخفاف بالمسئولية السياسية من الكتاب الذين وقعوا الخطابات التى تدافع عن الشخصيات " المعادية للاتحاد السوفييتى "(١٠). ولكنه من الواضح ان محررى هذه الصحيفة لن يكون باستطاعتهم ان يستمروا فى تجاهل الحقيقة فى ان تلك " الخطابات التى تدافع عن الشخصيات المعادية للاتحاد السوفييتى "، مثل جينزبورج وجالانسكوف، تحمل توقيعات كثير من الكتاب السوفييت الذين تمتعوا طويلا باحترام وتقدير كبيرين(١١).

ان مثقفين الاتحاد السوفييتى يزيدون من ضغطهم من أجل تحقيق حرية الفكر، ويؤكد هذه الحقيقة العدد الهائل من الخطب والأحاديث التى تدور فى اجتماعات كتاب موسكو، والتى تحدثت عنها ليتيراتورنايا جازيتا فى مقالة بعنوان " الولاء، الاتحاد، الاقتناع ". وعلى سبيل المثال تحدث ف. كوزيفنيكوف، سكرتير مجلس جمعية كتاب موسكو فهاجم أولئك الذين " ينبرون للدفاع عن الخونة المارقين الذين ادانتهم المحاكم السوفييتية بعدالة "(١٢)، وعبر عن استيائه الشديد لأنه " يوجد لسوء الحظ — من بين هؤلاء الأبطال من يحمل بطاقات عضوية الحزب أو الكومسومول فى جيوبهم "(١٣). ووجه اللوم الى الرقابة السوفييتية على تحررها، مقرراً أنه إذا كان هناك اليوم أعمال تنشر " وتعطى صورة مشوهة عن حياة وتاريخ الأمة، فانها الى حد كبير غلطة أجهزة النشر المتحررة المتساهلة بغير تعقل "(١٤). ويهاجم ى. جوكوف مطالب غيره من الكتاب والفنانين بمزيد من الحرية من قيود السيطرة الرسمية. اما مديفانى وهو أيضاً عضو فى اتحاد الكتاب، فهو يقرر بأنه لم يعد من الممكن السكوت على طيش وتخبط الكتاب والشعراء،

---

(٨) نفس المرجع السابق.
(٩) نفس المرجع السابق.
(١٠) ليتيراتورنايا جازيتا، ٢٦ يونيه (حزيران) ١٩٦٨.
(١١) نفس المرجع السابق.
(١٢) المرجع السابق، ٢٩ مايو (أيار) ١٩٦٨.
(١٣) نفس المرجع السابق.
(١٤) نفس المرجع السابق.

وعلى " أخطاء أولئك الذين يسعون للشهرة من طريق الافتراء على وجدان فنوننا "(١٥). وسلم مديفانى بأنه حتى من بين أعضاء الحزب اليوم من يكد ويجتهد حتى ينال التقدير والأعجاب خارج البلاد: " هناك أعضاء فى الحزب، أو أشخاص يحملون بطاقة عضوية الحزب، يضعون أنفسهم نتيجة لأفعالهم وتصرفاتهم، خارج نطاق الحزب. أنهم مستعدون لأن يفعلوا أى شيء لكى يسمعوا أسماءهم تتردد من اذاعات صوت أمريكا أو لندن أو ألمانيا الغربية "(١٦). والأهم من ذلك هو ان هذا المتحدث قد اعترف بأن هناك كتاب وفنانون سوفييت لا زالوا يتمسكون بالدفاع عن فكرة التعايش الأيديولوجى مع الغرب، ومنهم، كما يقول، أشخاص برهنوا فى السنوات الأخيرة على أنهم " عن قصد أو عفوا قد صاروا من المروجين لفكرة التصالح والتعايش الأيديولوجى مع الغرب، ويعبرون عن الميول التى تفارق الطريق القويم لأدبنا وفنوننا "(١٧).

وقدم الكاتب س. ناروفتشاتوف فى كلمته، مزيداً من الأدلة عن وجود جماعات من المثقفين السوفييت وخاصة من الشباب، يطالبون لأنفسهم بحق الاختيار بشأن القرارات والحلول للمشاكل الأيديولوجية والاجتماعية والسياسية، فيقول:

" ان بعض الرفاق يفترضون، على ما يتضح، أنهم بامكانهم ان يتجاهلوا الطبقة العمالية وأن يقدموا من فوق رأسها تحويراتهم الخاصة للمجتمع الذى تقوده (الطبقة العمالية). ان هذا التصور خاطىء لمكان الطبقة المثقفة، واستنتاج خاطىء لدور الكتاب فى نطاق الطبقة المثقفة. وأخيراً، فانها المبالغة فى تقدير أهميتهم الذاتية فى دنيا الأدب هى التى تغذى هذا الغرور الصبيانى فى بعض رفاقنا "(١٨).

وأشار ليونيد برجنيف السكرتير العام للحزب الشيوعى السوفييتى فى تقريره الى المؤتمر التاسع عشر لحزب مدينة موسكو، الى وجود ما سماهم، " الاشخاص غير الناجحين سياسياً "(١٩) فى أوساط الطبقة المثقفة السوفييتية، وذوى الميول الاستعراضية وهواه الشهرة، وذوى الاستعداد " لا للعمل من أجل صالح الوطن، بل للاعلان عن أنفسهم بكل الوسائل السياسية المشبوهة وبأعلى صوتهم، والذين لا يراعون وجه الحق بكيلهم المديح لخصومنا فى الأيديولوجية"(٢٠). ومن أهم ما جاء فى خطاب برجنيف هذا هو تأكيده

---

(١٥) نفس المرجع السابق.
(١٦) نفس المرجع السابق.
(١٧) نفس المرجع السابق.
(١٨) نفس المرجع السابق.
(١٩) كومسومولسكايا برافدا، ٣٠ مارس (آذار) ١٩٦٨.
(٢٠) نفس المرجع السابق.

أنه حتى بين الفنيين والمهندسين من الطبقة المثقفة يوجد شيء من عدم الرضى والتلهف على التعاون الحقيقى مع الغرب. فيقرر برجنيف ان: "بعضاً من العمال يقللون من قيمة المنجزات التى حققتها الفكر العلمى والتكنولوجى فى بلادنا وفى البلاد الاشتراكية الأخرى. وهم فى نفس الوقت يميلون للمبالغة فى تقدير قيمة المنجزات العلمية والتكنولوجية فى العالم الرأسمالى "(٢١).

وفى المؤتمر العام للحزب الشيوعى للاتحاد السوفييتى المنعقد فى أبريل (نيسان) ١٩٦٨، أعلنت اللجنة المركزية للمؤتمر بدء حملة ضد "التفكير الحر"، بهدف "ضمان تشديد رقابة الحزب على الأدب، واعاقة المحاولات التى تسعى لادخال الأفكار الغربية على الفكر الاشتراكى فى المجتمع السوفييتى من خلال الأعمال الفردية فى الأدب والفن... الخ. بطريق خفى"(٢٢). ولخصت ليتيراتورنايا جازيتا ما دار فى هذا المؤتمر فى مقالة بعنوان "الحزب والروح الوطنية للأدب السوفييتى"، وانتهت الى نتيجة تستحق اهتمامنا: وهى ان روح الحزب فى الأدب أهم من العنصر الوطنى، لأنه "ما لم يكن الطابع الوطنى للأدب السوفييتى متحالفاً مع الفكر الحزبى الشيوعى، فأنه يكون شيئاً غير طبيعى وأمراً مناقضاً للصواب منقولا عن أولئك الكتاب الذين ينتمون الى المجتمع القديم الذين حاولوا البقاء خارج نطاق الحياة السياسية "(٢٣). وعبر كاتب تلك المقالة، وهو ج. كونيتسين عن ضيقه لأن بعض الأدباء والفنانين من المثقفين السوفييت فى هذه الأيام، يظهرون ميولا واضحة لرفض حق الحزب فى توجيه الأدب، بحجة طبيعة التفوق الطبقى للأدب. ويستطرد: "من الممكن ان نسمع من وقت لآخر أصواتاً بين الفنانين السوفييت تتكلم بحجج وان كانت مختلفة تماماً الا انها جميعها خاطئة. وهى التى تقول بأن الأدب والفن السوفييتيان فى هذه الأيام، فى وضع يسمح لهما بالارتفاع على "المصالح الطبقية والحزبية "(٢٤).

ونعود الى القاء نظرة على رد الفعل الذى أحدثته محاكمة وادانة جينزبورج وجالنسكوف وغيرهما بين الكتاب والفنانين وغيرهم من رجال الفكر السوفييتى. ومما يستحق الذكر فى هذا المجال، ان رد الفعل هذا قد شغل قسماً كبيراً من المواطنين السوفييت. ويشهد بهذه الحقيقة الخطاب الذى نشرته ليتيراتورنايا جازيتا لقارىء يدعى نوفيسكوف، وعلق عليه رئيس التحرير ا. شاكوشيفسكى، فإتهم الكتاب المخالفين الذين "لا يستطيعون مقاومة

---

(٢١) نفس المرجع السابق.
(٢٢) ليتيراتورنايا جازيتا، ١٧ ابريل (نيسان) ١٩٦٨.
(٢٣) نفس المرجع السابق.
(٢٤) نفس المرجع السابق.

اغراء مطارحة الأعداء الغزل، برغم ما قد يجلبه عليهم هذا السلوك من سوء السمعة "(٢٥). وكما يقول شاكوشيفسكى، فان هذا العصيان يلزمه حرية الرأى بما فيها "حرية المطالبة بالاطاحة بالنظام الاشتراكى، والحرية فى عمل الاتصالات بالثورة المضادة الأجنبية، والحرية فى توزيع مواد دعاياتها "(٢٦).

ولم يستطع محررى ليتيراتورنايا جازيتا ان يتجاهلوا الأسئلة التى وضعها خطاب نوفيكوف. فقد كانت تعبر عن آراء كثير من المواطنين السوفييت للانتهاكات الشاملة للقانون السوفييتى المتمثلة فى اضطهاد الكتاب، وموقف الحزب والحكومة من رجال الفكر ومطالبتهم بالحرية(٢٧). واتهم خطاب نوفيكوف الصحافة السوفييتية بتعمد اخفاء الحقائق عن قرائها، وشدد على أنه "الشىء الذى لا يمكن فهمه على الاطلاق، هو أنه على أى أساس يتوقعون ان يظل المرء صامتاً أمام أسئلة مثل تلك التى أصبحت معروفة جيداً لكل قارىء سوفييتى من خلال الاذاعات والصحافة العالمية "(٢٨).

وقبل ذلك — فى عام ١٩٦٧، وبينما كانت الاستعدادات للاحتفال بذكرى مرور خمسين عاماً على تأسيس الدولة السوفييتية تجرى على قدم وساق، أشارت صحيفة مولودوى كومونيست التى تصدرها اللجنة المركزية للكومسومول الى خطر التفكير الحر فى الأدب. وكتبت تقول: "ان السماح عملياً بسياسة عدم تدخل الحزب فى شئون الأدب، معناه تشجيع التطورات التلقائية غير المنظمة التى لا تتبع هدفاً معيناً وذلك فى واحد من أهم الميادين الأيديولوجية. ومعناه تسهيل ادخال الأفكار الغربية على الحياة السوفييتية تسهيلا عظيماً "(٢٩). وتؤيد المقالة فرض الرقابة الاجبارية واستخدام الضغط المباشر على الكتاب والفنانين. وذكرت ان الحزب يمارس تأثيراً عالمياً فى تطوير الثقافة الفنية بواسطة لجانه معتمداً على المؤسسات الحكومية المسئولة عن الشئون الفنية فى الاتحادات والجمعيات الأدبية والفنية(٣٠). ومع كل هذا تقول الصحيفة بكل وضوح أنه "لا يمكن ان يكون هناك تأثير على تطور الفن، وتأثير فى تشكيل انتاجه الا بالتأثير على الفنانين المنتجين له "(٣١).

---

(٢٥) المرجع السابق، ٢٧ مارس (آذار) ١٦٩٨.
(٢٦) نفس المرجع السابق.
(٢٧) نفس المرجع السابق.
(٢٨) نفس المرجع السابق.
(٢٩) مولودوى كومونيست، ١٩٦٧، رقم، ص ٦٤.
(٣٠) المرجع السابق، ص ٦٨.
(٣١) المرجع السابق، ص ٦٩.

وفى نفس العـدد من " مولودوى كومونيست " كـتب ميخائيل شولوخوف وهـو من أكبر المناصرين للحكومة، فعبر عن انزعاجه من تصرفات المثقفين من الأدباء الشبان وأعتبرهم فى كثير من الأحيان غير مبالين بالمسائل السياسية، ومنجذبين الى البدع البرجوازية، وميالين الى الأراء التى لا تراعى المسئولية والتى يمكن ان تستفيد منها القوى المعادية للاتحاد السوفييتى(٣٢). ثم أشار شولوخوف الى وجود أشخاص فى دوائر الأدب السوفييتية " على استعداد لاثارة الضجيج لأتفه الأسباب وعند أية نادرة للتفكير الحر المغرور"(٣٣).

وبالرغم من رقابة الحزب الشديدة على الأدب السوفييتى خلال السنوات القليلة الماضية، وخاصة بعد المؤتمر العام للجنة المركزية للحزب فى أبريل (نيسان) ١٩٦٨، فان الاتجاهـات المـتحررة لا تزال تظهر فى الكـتب وفى المجـلات وحـتى من خـلال النقـد الأدبى. وموقف الحزب العقائدى لا يزال يواجه المعارضة، ولا زالت المحاولات للتنبيه الى الأخطاء ومواضع الضعف فى النظام السوفييتى مستمرة. بل ان صحيفة "كومونيست" المؤيدة للحزب تعارض أحياناً طريقة " وضع المؤلفين جميعهم فى قالب فنى مرسوم لهم، وتكوين أيديولوجى معـد لهم مسبقاً "(٣٤). وتعترف الصحيفة بالمواهب الممتازة من الكتاب الأجانب مثل بروست وجويس وكـافكـا، الذين كـان الحزب ينتقدهم فيما مضى فتقول: " لا شك ان هؤلاء كتاب موهوبون، وان النقاد السوفييت الذين أنكروا موهبتهم فى الماضى كـانوا مخطئين "(٣٥).

بل ان صحيفة " فوبروسى فيلوسوفى" تسوق حجة أقوى من أجل التسامح فى الأدب والفن فى مقالة بعنوان " الاصالة أم الحقيقة " بقلم ا. فينوجرادوف، أبدى كـاتب المقالة ملاحظة جريئة بقوله ان الفن " لا يتسامح مع أى نوع من العقائد وأى نوع من الضغط أو أى بادرة نحوها. ان الفن يعرف قانوناً واحداً لا غير، وهو ان يمنح الناس إمكـانية ان تتعانق أرواحهم مع الحقيقة الموضوعية لـكـل شىء له أهمية وقيمة فى حياة البشر "(٣٦). ثم يتحدث مدافعاً عن الحق فى الحرية الشخصية فيقول: " أنه النشاط الفكرى هو محدد الحاجة العليا عند كـل إنسان يعرف قدر نفسه كـإنسان. وهذا النشاط هو فى الواقع ما يؤكد كيانه كشخص، ويؤكد ذاته الفريدة ويحدد حواس الانسان الخاصة

---

(٣٢) المرجع السابق، ص ٧٠.
(٣٣) نفس المرجع السابق.
(٣٤) كومونيست، ١٩٦٨، رقم ١، ص ٨٤.
(٣٥) المرجع السابق، ص ٨٨.
(٣٦) فوبروسى فيلوسوفى، ١٩٦٨، رقم ٢، ص ٨٠.

التى تحدد معنى وجوده. ولا شىء غير الحرية والتطور والاشباع الغزير للحياة الروحية للانسان مع الارضاء الكامل لجميع حاجاته الأخرى، تقرر فى النهاية البهجة الحقيقية والسمو الحقيقى لوجود الانسان . . . وفى الحقيقة، فالانسان لا يعيش بالخبز وحده"(٣٧).

هذه الاتجاهات الواضحة فى هاتين الصحيفتين وغيرهما من وسائل النشر السوفييتية لا يمكن ان تكون بأى حال من الأحوال متفقة مع تعاليم الحزب. وعلى سبيل المثال، فقد أشارت صحيفة "سوفييتسكايا روسيا" فى نقدها الخاص بنشر ديوان شعر ج. جورباتوفسكى الذى يشكو فيه من ان جميع أوجه الحياة السوفييتية التى يلمسها "توجد فى النفس غصة وتضع على الشفاه بسمة مصطنعة تنطق بالضغينة"(٣٨). هذه المجموعة من الأشعار ــ كما تقول الصحيفة ــ "تحتوى على تعريض وضيع بالواقع والحقيقة السوفييتية"(٣٩). ويلوم المحررون الرقابة السوفييتية أيضاً من أجل "فقدان الشعور بأبسط قواعد المسؤلية" بالسماح بنشر مثل هذا الديوان(٤٠). وشنت هجوماً عنيفاً على صحيفة "نوفى‌مير" التى كثيراً ما تتعرض للنقد، بسبب نشرها قصة ى. جيراسيموف "رحلة الى ينابيع بيشكاخ" فى عدد ديسمبر (كانون الأول) ١٩٦٧. واتهمت مؤلف القصة بإهانة الحياة السوفييتية، وهاجمته لتصويره الشيوعيين "لا كأفضل من يمثل الشعب، ولكن كقوة مواجهة له تقريباً"، ولأنه رأى ان عملية تطبيق الجماعية فى الزراعة بأكملها "اكراه دائم واعتداء متواصل على الفلاحين"(٤١). ثم تعلق الجريدة على ذلك بأن القصة تعطى صورة باهتة لا لسنوات تطبيق الجماعية فحسب، ولكن لزماننا الحاضر أيضاً". ثم تقرر الصحيفة (سوفييتسكايا روسيا) ان "هيئة تحرير صحيفة نوفى‌مير تطعن فى تاريخ تطور الريف السوفييتى وفى الأوضاع الراهنة للفلاحين الجماعيين. . . وفى نفس الوقت تضع ورقة رابحة فى أيدى أعدائنا فى الأيديولوجية"(٤٢).

وتنتقد "سوفييتسكايا روسيا" قصيدة الشاعر روجديستفينسكى العصماء المسماه "فى وجهات النظر المختلفة" التى نشرت فى صحيفة "يونوست" (العدد ١٢، ١٩٦٧) التى يصور فيها "حيرة واختجاج" احد أبطال العمال الاشتراكيين(٤٣).

---

(٣٧) المرجع السابق، صفحات ٧٨–٧٩.
(٣٨) سوفيتسكايا روسيا، ٢٣ مايو (أيار) ١٩٦٨.
(٣٩) نفس المرجع السابق.
(٤٠) نفس المرجع السابق.
(٤١) المرجع السابق، ٨ مايو (أيار) ١٩٦٨.
(٤٢) نفس المرجع السابق.
(٤٣) المرجع السابق، ٨ فبراير (شباط) ١٩٦٨.

ومن الأمور المحيرة، الهجوم الذى شنته صحيفة " فوبروسى ليتيراتورى" على الصحيفة الأدبية " يونوست"، واتهمها فيه " م. لوبانوف" بالتقدمية(٤٤)، وأضاف بأنه ينقصها الادراك الحضارى وانها مليئة " بالسفاهات عن أحدث الأعمال الفنية "(٤٥). ثم يأسف "لأنها تنظر الى مسلك الوطنية الروسية نظرة ازدراء هكذا بطريقة علنية، وان موقفها من تقاليد الأدب السوفييتى واضح تماماً وهى أنه لا تقبله أساساً "(٤٦). وحاول الكاتب بوريس بوليفوى (رئيس تحرير يونوست) فى المناقشة التى ادارتها " فوبروسى ليتيراتورى" ان يرد على الاتهام الذى وجه الى صحيفته بأنها وصفت الجيل السوفييتى الجديد بأنه قد ضاق ذرعاً بالحياة، فكتب يقول: "ان أولئك الذين فى اعتقادى قد نعتوا بأنهم — الشبان ذوى العيون الساهمة — ليسوا من صنع كتابنا، ولكنهم موجودون بالفعل فى الحياة . . . انه لمن المستحيل ان نغض البصر بمثل هذه السهولة عن الظواهر الواقعية للحياة، فهذا وحده لن يسبب لهذه الظواهر ان تتلاشى "(٤٧).

ومن أحسن النماذج للنضال من أجل حرية القلم فى الأدب السوفييتى، النزاع العنيف التى نشب عام ١٩٦٨ بين محررى صحيفتين أدبيتين للشباب وهما " مولودايا جفارديا " (التى تصدرها اللجنة المركزية للكومسومول) و" يونوست". فى السنوات القريبة، اكتسبت فكرة الوطنية الروسية بسرعة مكاناً فى دنيا الأدب السوفييتى وخصوصاً فى الشعر. وتجسدت فى الأعجاب بالتاريخ الروسى والتقاليد الروسية، وفى التغنى بالدور القيادى التاريخى والثقافى للأمة الروسية. وعلى ما يبدو، أنه لما واجهت محاولات تلقين الشباب فكرة " الوطنية السوفييتية " الرفض التام، قرر القادة السوفييت ان يختاروا فى المرة الثانية ما قد يكون أفضل، وعلى هذا فقد شجعوا هذا الاتجاه المغالى فى الوطنية على أمل ان يساعدهم على حفر مجرى آمن نسبياً تسير فيه الاتجاهات الليبرالية المتزايدة والتفكير الحر للشباب، بدعوتهم لفكرة " الوطنية الروسية ".

ومع أنه قد يبدو متناقضاً ان " مولودايا جفارديا " التى تصدرها اللجنة المركزية للكومسومول، والتى أصبحت المعبرة عن هذا الاتجاه، هى التى تبشر علانية بالرسالة العالمية للشعب الروسى والثقافة الروسية واللغة الروسية. فى مناسبة الاحتفال بمرور خمسين عاماً على انشاء الاتحاد السوفييتى، كتب الناقد البارز ف. تشالماييف مقالة بعنوان " فلسفة

---

(٤٤) فوبروسى ليتيراتورى، ١٩٦٨، رقم ٢، ص ٣٨.
(٤٥) نفس المرجع السابق.
(٤٦) نفس المرجع السابق.
(٤٧) المرجع السابق، ص ٥٢.

الوطنية " قال فيها : " ان الكتاب يظفرون بالمجد لأمتهم، ولا يجمعون النجاح الزائل على المنابر الأجنبية "(٤٨) ثم يقول : " ان روسيا تفيض بحياة الود والبشاشة والطهر. ان العالم يمكن ان يموت مختنقاً من الافراط فى التعقلية الميتة ومن المنطق الأجرد الذى لا روح فيه. ان أعظم حكمة فى عصرنا هى ان نعتز بهذه الينابيع الفنية بالصدق والأمانة الروسية "(٤٩). ولم يكن هذا كله كافياً فى نظر تشالماييف فهو يرى أنه من الضرورى " ان نفعل كل ما يرفع صوت روسيا متردداً فى كل أنحاء العالم، وان نظهر الوطنية التى تتمتع بها الروح الروسية لكى تكون أسمى تعبير عن العالمية "(٥٠). ورد محررى " يونوست " على ذلك بقولهم : " ان مقالات معينة فى النقد ظهرت فى مولودايا جفارديا ، تحدث انطباعاً سيئاً عن مواقف صحيفة الكومسومول من النضال الأيديولوجى الجارى "(٥١).

وبالطبع لم تكن اللجنة المركزية للكومسومول على استعداد لأن تترك الأمر يقف عند هذا الحد، فأنبرت جريدتها الخاصة "كومسومولسكايا برافدا " للرد على " يونوست " ونسبت إليها وجهة نظر أيديولوجية وجمالية خاطئة، وانها " فى كلا النثر والنقد تحدد نفسها بفهم سطحى لفكرة الشباب، يصحبه ضيق فى الأفق ورتابة فى الأسلوب الفنى تضر بالبحث الموضوعى عن السمات الروحية للشباب المعاصر "(٥٢). واتهمتها بانها تشغل نفسها " بالمبتدعات " و " بادعاء العلم " وان محرريها يتناولون الموضوع بأسلوب سطحى عند بحثهم لما هو الخير والشر(٥٣).

ان النضال من أجل الحرية الروحية فى المجتمع السوفييتى المعاصر نضال أمتدت مسيرته فى أثر مسيرة النضال الأدبى. واليوم يمتد الى المسرح، حيث توجد محاولات لمخرجين سوفييت ليقدموا تفسيرات حديثة للمسرحيات الكلاسيكية على خشبة المسرح، تهدف الى نقد الأوجه الغير جذابة للحياة السوفييتية . مما دعا قادة الحزب الى الاهتمام بالأمر ومن أمثلة ذلك ما قاله س. ميخالوف فى المقالة التى أشرنا إليها من قبل : " هناك بعض الوقائع فى مجال الفنون وخاصة فى المسرح، لا يمكن الا ان تدق ناقوس التحذير. فأنه لمن دواعى الأسف ان قام بعض المخرجين عمداً بتحريف نصوص الأعمال الكلاسيكية

---

(٤٨) مولودايا جفارديا، ١٩٦٧، رقم ١٠، ص ٢٧٢ .
(٤٩) المرجع السابق، ص ٢٧٧ .
(٥٠) المرجع السابق، ص ٢٨٥ .
(٥١) يونوست، ١٩٦٨، رقم ٢، ص ٩٩ .
(٥٢) كومسومولسكايا برافدا، ١٦ مارس (آذار) ١٩٦٨ .
(٥٣) نفس المرجع السابق .

بطريقة تثير الانفعالات بين قسم معين من الجمهور"(٥٤). واعتبر ان المخرجين ينقصهم الوعى بالمسئولية الحضارية لتقديمهم حوارات المسرحيات الكلاسيكية فى تغيير غير محسوس مقصود به " رجل الشارع الغير الناضج سياسياً " .

ومن الأوجه التى تستحق الاهتمام فى النضال من أجل حرية القلم فى الاتحاد السوفييتى هى ما يسمى " تنازع الأجيال " . فمع ان ذلك الافتقار الى الفهم المتبادل بين " الأباء والأبناء " ثابت تماماً فى حالات كثيرة، فان قادة الحزب والنقاد ينكرون وجوده بجرأة يحسدون عليها، ويصرون على ان الجيل يخلف الأخر فى ليونة ويسر دون أى اختلاف أو اساءة فهم فى الاتحاد السوفييتى. ولكن ما تنشره الصحف والمجلات المختلفة يدحض هذا الادعاء على أى حال. ومن أمثلة ذلك، ما نشرته صحيفة "كومسومولسكايا برافدا" وما يؤكد فى وجود تناقضات بين الأجيال فى المجتمع السوفييتى وخاصة فى هذه الأيام. وهذا "التنازع"، كما تقول الصحيفة، "تعبر عنه بشكل خاص السلبية المنتشرة بين الشباب ورفضهم المثل السائدة فى المجتمع"(٥٦).

ونشرت " مولودايا جيفارديا " قصة لفياتشيسلاف شوجاييف تصور الافتقار الى العلاقة بين الجيلين الأصغر والأكبر تصويراً دقيقاً. وبطل القصة شاب فى السابعة عشر، أسمه " سريوجا "، يعيش حياة بلا هدف، لا يسعى الا وراء الانحراف واللهو. وتصور حياة الشباب فى بلدة حديثة البناء فى سيبيريا وتصف لنا كيف ان عصبة من ذوى الخمسة عشرة عام يتقاتلون بالسكاكين كل حين وآخر. بل أنه يصف مكتب الاحصاءات بالمنطقة الذى يصر على ان الشغب يتضاءل برغم ان جميع الشواهد تؤكد عكس ذلك.

وبعد، فاذا كان هناك من يسمحون بنشر مثل هذا الوصف الواقعى للأوجه السلبية للحياة السوفييتية فى جريدة تصدرها اللجنة المركزية لكومسومول، واذا كانت دفعات الليبرالية والتحرر الفكرى ستستمر فى شق طريقها بين وسائل الاعلام الأخرى بالرغم من الضغط الرسمى والتهديد بالمحاكمة والسجن، فمن الواضح ان القادة السوفييت ليسوا اليوم فى وضع يستطيعون معه كبح جماح هذه المساعى، وهذه الانطلاقات الواضحة للشبيبة المثقفة ولممثلى جيل الشباب فى الاتحاد السوفييتى.

---

(٥٤) المرجع السابق، ٣٠ مارس (آذار).
(٥٥) نفس المرجع السابق.
(٥٦) كومسومولسكايا برافدا، ٤ ابريل (نيسان) ١٩٦٨.
(٥٧) مولودايا جفارديا، ١٩٦٨، رقم ٥، ص ٢٥.

وأنه لمن الصعب ان نتكهن بالتطورات المستقبلة فى الأدب السوفييتى ، وخاصة بعد أحداث تشيكوسلوفاكيا وما كان لها من أثر فى تدهور الحال فى داخل الاتحاد السوفييتى نفسه . كما أنه من أصعب الأمور ان تدور عقارب الزمن الى الخلف وتلغى ما تحقق من تقدم منذ وفاة ستالين. وقد يصلح هنا ان نذكر قول الشاعر نيكولاى اسييف :

" لا أحد سوف يأخذ منا الطريق الذى قطعناه " .

عرض وتحليل لأهم الأحداث

المسرح السوفييتى تحت الضغط

أقدم بعض مخرجى المسرح فى الاتحاد السوفييتى فى عامى ١٩٦٧، ١٩٦٨ على اخراج بعض المسرحيات الكلاسيكية فى ثوب عصرى، مع ادخال بعض التعديلات الطفيفة التى حاولوا بها ان يضمنوها مفاهيمهم السياسية الخاصة، ولفت نظر الجماهير الى الأوجه السلبية للمجتمع السوفييتى. وقد لاقى هذا الاتجاه ردود فعل متباينة. أما بالنسبة للجماهير، وخاصة الشبان، فقد لاقى منهم الاستحسان والاقبال الشديد. فحين قدمت مثلا مسرحية "موت تاريلكين" للروائى ا. سوخولوف (من العصر القيصرى)، والتى ترسم صورة كئيبة لروسيا، فقد أتى على لسان أحد شخصيات المسرحية النص التالى: "انى أظن ان بلادنا بأجمعها، شرذمة من الذئاب والحيات. أنى أشك فى كل إنسان"، واستقبلها شباب المتفرجين بعاصفة من التصفيق والاستحسان (تياترال‌نايا جيزن، ١٩٦٧، رقم ٥، ص ١٣). وكان هذا ولا شك تحذيراً للأيديولوجيين السوفييت، لم يكن من المعقول ان يقفوا امامه مكتوفى الأيدى. ومنذ ذلك الوقت بدأت حملة ضد المسرحيين المجددين فى الاتحاد السوفييتى، وكثرت الاتهامات ضدهم بالخروج على صفوف الحزب، والانحراف عن الأيديولوجية السوفييتية وما الى ذلك. وتعرض عدد غير قليل من نقاد المسرح والأيديولوجيين لهذا الموضوع بالتعليق والتحليل. فمثلا كان تعليق فاسيلى روساكوف: "أنه من الواضح تماماً ان تجديد الأعمال الكلاسيكية بهدف التعبير عن وجهات نظر معاصرة لا يساعدنا، ولا بأقل شىء فى حل مشاكلنا. ولكنها تسهل فقط أثارة العلاقات السيئة" (سوفيتسكايا كولتورا، ٢٩ يوليو [تموز] ١٩٦٧).

ومنهم من أرجع هذه الظاهرة الى التربية الأيديولوجية مثل م. تساريف الفنان الشعبى السوفييتى الذى قال: "ان المناقشات فى المعاهد لهى أيضاً وسيلة ناجحة للتربية الأيديولوجية

للشباب . . . ومن المهم جداً ان يشترك المدرسون، الذين يجب ان يكون لهم وجهة نظر مشتركة فى مشكلات المسرح المعاصر، فى هذه المناقشات" (تياترال نايا جيزن، ١٩٦٨، رقم ١٦، ص ٢) . وانضم إليه ى. زوبكوف رئيس صحيفة " تياترال نايا جيزن " فقال: " ان كل من يعمل فى فرق المسرح مسئول شخصياً عن اتجاهه الأيديولوجى وعن مستواه الفنى والروايات والادوار التى يقدمها على المسرح . . . ان الفنان يجب ان يعتبر نفسه جندياً فى ميدان النضال الأيديولوجى، جندى من جنود الحزب " (تياترال نايا جيزن، ١٩٦٨، رقم ١٨، ص ٤) . ثم وجه الى تلك الفئة من المخرجين نقداً لاذعاً واصفاً اياهم بأنهم: " يوقفون مواهبهم على اخراج الأعمال الردئية الغير سليمة أيديولوجيا، ويركزون جهودهم فقط على اظهار الوجه المظلم للحياة السوفييتية " (نفس المصدر السابق) .

ولكن جميع الأيديولوجيين ونقاد المسرح المحافظين على خط الحزب، قد تجاهلوا حقيقة الأسباب التى دفعت المخرجين الى هذا التصرف فان ندرة الأعمال التى تعطى صورة صادقة أمينة للمجتمع السوفييتى وتتناول أوجه الحياة السوفييتية بصراحة وشجاعة، هى التى أجبرت المخرجين على هذا الاتجاه . حتى صارت مسألة اعداد برنامج مسرحى جديد، من أصعب المشاكل التى يمكن ان تواجه مخرج المسرح. فعليه ان يحصل على موافقة الحزب من ناحية، ومن الناحية الأخرى فهو مطالب بارضاء حاجات الجماهير، كما ينبغى عليه ان يضع فى حسابه الاعتبارات المالية . والرواية التى تحظى بموافقة الحزب تكون فى الغالب صورة مكررة لما دأب الحزب على ترديده فى آذان الجماهير حتى سئموه ونفروا منه. وما يرضى الجماهير، سوف يدينه الأيديولوجيين ، ثم ان مادته الجديدة غير متوفرة وكانت هذه هى المشكلة الحقيقية التى دفعت بالمخرجين الى الاتجاه نحو الأعمال القديمة وهم ينشدون ضالتهم فى المسرحيات الكلاسيكية، بعد ان يدخلوا عليها ما يرونه من تعديلات خفيفة ولكنها تسمح لهم بالتعبير عن وجهات نظرهم، فى المشكلات السياسية والاجتماعية المعاصرة، والكشف عن الأوجه السلبية للمجتمع السوفييتى ، وان كانت تتناولها بالتلميح دون التصريح.

ولكن هناك بين الأيديولوجيين المحافظين على خط الحزب من يقول بأن هذا المنهج لا يكشف عن بعض الأوجه السلبية للمجتمع السوفييتى فحسب، ولكنه سيؤدى الى تعريه النظام السوفييتى بكامله . وبالتالى فهم يقفون منه موقفاً متشدداً يؤدى الى القضاء على فرصة وجود مسرح سوفييتى حى صادق .

•

الخدمات العامة فى الاتحاد السوفييتى لا زالت تتعثر فى عقبة المركزية

أصدرت اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى بالاشتراك مع مجلس الوزراء السوفييتى منذ أكثر من عشر سنوات قراراً بقانون " لتحسين الخدمات المنزلية " (برافدا ١٣ مارس [آذار] ١٩٥٩) . ولكن برغم كل ما جرى من محاولات للتقدم بهذا القطاع من الخدمات العامة الذى ظل مهملا زمناً طويلا، فهو لا يزال يعانى من نقص شديد ولم يطرأ عليه أى تغيير ملموس . ويرجع السبب فى ذلك أساساً الى قلة عدد العاملين مع ضعف الخبرة : " لا يوجد مستخدمون مدربون تدريباً كافياً . . . فى أخانجلسك مثلا، ثلاثة أرباع وظائف المهندسين والعمال الفنيين فى شبكة الخدمات المنزلية، يشغلها أشخاص لا يحملون أى مؤهلات . ونصف مديرى المشروعات لم يتموا حتى دراستهم الثانوية " (برافدا، ٢٦ فبراير [شباط] ١٩٦٩) .

ويقوم قطاع الخدمات المنزلية على وحدات أساسية للخدمة هى عبارة عن مجمعات ضخمة تعمل بها أجهزة ادارية كبيرة العدد ويتوقف نجاح ادارة المجمع وفاعليته على كفاءة مديره ومقدرته الشخصية . ولكن الملاحظ ان مديرى هذه المجمعات معظمهم لم يدربوا تدريباً خاصاً على ادارتها، علاوة على انهم يكونون فى أغلب الأحيان ممن فشلوا فى وظائفهم السابقة (برافدا، ١١ ابريل [نيسان] ١٩٦٩) .

وهناك سبب آخر، فان معظم الشباب يحجم عن العمل فى قطاع الخدمات المنزلية، اعتقاداً منهم بأنه شىء مهين ومحط لمكانتهم . فمن بين ١٤ ألف متخصص تخرجوا فى مدارس التأهيل المهنى فى عام ١٩٦٧، نجد ٨ ألف تقريباً تخصصوا فى خياطة الملابس، بينما ٥٠٠ فقط هم الذين تخصصوا فى اصلاح الأجهزة المنزلية (برافدا، ٣١ يناير [كانون الثانى] ١٩٦٩) . وذلك الى جوار أنه حتى التدريب الذى يتلقاه الدارسون فى هذه المدارس، تدريب ناقص وغير مخطط وفقاً للاحتياجات الفعلية لهذه الخدمات : " فلتكن مدة الدراسة أطول، وليكن عدد المتخرجين أقل، ولكنهم سوف يكونون مقتدرون فى مهنتهم " (ازفستيا، ١٨ ديسمبر [كانون الأول] ١٩٦٨) .

ومما يدفع الشباب الى الأحجام عن العمل فى قطاع الخدمات المنزلية هذا، هو ما يحيط به من سوء السمعة لدى الجمهور. فبسؤال ٥٠ عائلة عن رأيهم فى الخدمات

المقدمة إليهم، أجاب تسعة منهم بأنهم يعتقدون ان غالبية العاملين فى تلك المهن غير امناء، ورای ثلاثة ان مهنة البائع مهنة شائنة (برافدا، ٧ مارس [آذار] ١٩٦٩) .

والحقيقة أنه منذ انشاء النظام السوفييتى ، كان هناك نقص دائم فى السلع الاستهلاكية، بسبب الأولوية التى أعطيت للصناعات الثقيلة، واعتياد البائعين على اخفاء المواد التموينية الشحيحة وتسريبها فى الخفاء الى أصدقائهم ومعارفهم أو الى ذوى النفوذ سعياً وراء المنفعة. وأما مسألة الانقاص من الوزن فقد كانت شيئاً معتاداً . ثم بذلت جهود لمحاولة إيجاد أفضل الطرق لتوفير هذه الخدمات . فانشئت المؤسسات الكبرى التى كانت من نوعين : فهى أما ان تكون متخصصة فى نوع واحد من الخدمات، أو ان تضم أنواعاً متعددة منها تحت ادارة واحدة مثل المؤسسات التى تجمع بين تنظيف وكى الملابس، والصباغة، واصلاح الأحذية، واصلاح الأجهزة المنزلية . ولاقت هذه المؤسسات نجاحاً فى المدن الكبرى، أما فى الريف فلم تستطع ان تلقى مثل هذا النجاح بسبب صعوبة وسوء وسائل النقل التى تعتبر ضرورية ولازمة لمثل هذه الخدمات (نشرة تخطيط واقتصاديات الاحتياجات اليومية للسكان، موسكو ١٩٦٨، ص ١٢٨) .

وبالنسبة للنوع الأول، أى المؤسسات المتخصصة فى نوع واحد من الخدمات، فقد كانت سياسة انشائها تقوم على المبالغة فى الضخامة تمشياً مع فكرة المركزية التى تسير عليها كل السياسات الداخلية السوفييتية . ولم ينجح هذا النظام فى تحقيق القدر الضرورى من الخدمات للجمهور، بسبب تلك الضخامة التى تحتاج ولا شك الى خبرة عالية جداً فى ادارة المشروعات، وهو الشىء الذى لم يتوفر، الى جوار ان المركزية وقفت عقبة فى سبيل تحديد الاحتياجات الفعلية للجمهور بل حتى التعرف عليها .

ومما هو جدير بالذكر ان مثل هذه المشروعات الضخمة تحتاج الى جهد ووقت كبيرين حتى تشرع فى تقديم الخدمات لجمهورها . فعلى سبيل المثال ، وضع مشروع لبناء مؤسسة لغسل وتنظيف وكى الملابس فى أوفا، واعتمد لها مبلغ ٤٤٥ ألف روبل . وبعد سنتين من بدأ العمل فى انشائها كان كل ما انفق من هذا المبلغ فى تنفيذ المشروع هو مبلغ ١٦٠ ألف روبل . وقياساً على هذا المعدل فى سير العمل فى المشروع فأنه يحتاج الى حوالى ٦ سنوات حتى يتم ويبدأ فى تقديم الخدمات (برافدا، ٦ فبراير [شباط] ١٩٦٩) .

وما داموا يصرون على عدم السماح بقيام المشروعات الصغيرة الخاصة أو التعاونية التى تضمن حسن خدمة الجمهور وسرعة الاتصال به والتعرف على رغبات كل فرد منه،

لأنها لا تتفق مع سياستهم الاشتراكية ونظرياتهم فى المركزية، فسيظل جمهور المستهلكين فى الاتحاد السوفييتى يعانى من نقص هذه الخدمات وانحطاط مستواها .

•

اناتولى كوزنيتسوف يختار الحرية

رفض الكاتب السوفييتى المعروف اناتولى كوزنيتسوف ان يعود الى الاتحاد السوفييتى من رحلة كان قد قام بها فى الغرب، وطلب منحه حق اللجوء السياسى فى بريطانيا. وموضوع كوزنيتسوف يختلف عما تعودناه فى حالات أخرى مشابهة . فهو يرجع فى كثير من أصوله الى طبيعة الرجل نفسه وتكوين شخصيته، الى جوار ما ذكره هو من أسباب بالطبع.

ولد اناتولى عام ١٩٢٩، من ابوين مثقفين، فابوه كان مهندساً وأمه معلمة، وان كانا ينحدران أصلا من طبقة العمال . وقضى فترة طفولته ومراحل تعليمه الأولى فى حضانة جدية بسبب انفصال والديه بالطلاق . وفى أثناء احتلال الألمان لمدينة كييف خلال الحرب العالمية الثانية، قبض عليه مرتين لأخذه ضمن مجموعات الشباب الذين كانوا يجمعونهم لارغامهم على العمل لهم، ولكنه استطاع الهرب فى كلا المرتين. وبعد الحرب حاول استئناف دراسته الثانوية، ولكن سوء الحالة المالية لعائلته أرغمه على ترك المدرسة فى ١٩٥٢ . ومن ثم اشتغل عاملا فى بناء احدى محطات القوى الكهربائية . وفى عام ١٩٥٣ اشتغل مراسلا أدبياً لجريدة " العمل " . وأتاح له ذلك فرصة اتمام دراسته الثانوية فى مدرسة مسائية . كما اتاحت له مراسلاته مع تلك الجريدة فرصة الالتحاق بمعهد جوركى للآداب فى موسكو عام ١٩٥٤ . وتخرج من هذا المعهد عام ١٩٦٠ . وفى خلال فترة دراسته بمعهد جوركى جمع بين القلم والفأس، وكان يقضى اجازات الصيف عاملا فى مشروعات البناء فى سيبيريا .

وفى عام ١٩٥٧ جاءته شهرة مفاجئة وهو لم يزل طالباً بمعهد جوركى، وذلك لما احرزته قصته " برودولجينيه ليجندى" (استمرار الأسطورة) من نجاح وتقدير كبيرين فى أوساط الأدب والحزب وبين القراء . ووزع منها ما يزيد عن مليون نسخة فى خمس سنوات، وترجمت الى ثلاثين لغة .

وكان مترجم النسخة الفرنسية، على ما يبدو، قد أحدث شيئاً من التحويرات الملحوظة فى بعض الكلمات مما أثار نزاعاً بينه وبين كوزنيتسوف وصل الى القضاء، وفى عام ١٩٦١ حكمت محكمة ليون (فى فرنسا) لصالح المؤلف (كومسمولسكايا برافدا، ٢٨ يناير [كانون الثانى] ١٩٦١). ولكن كوزنيتسوف عاد الآن وطلب من وزارة العدل الفرنسية اعادة النظر فى القضية، بحجة انه كسبها بدون وجه حق، وأنه كان يتصرف تحت ضغط السلطات السوفييتية، وحاول تبرير موقفه القديم ضد المترجم بقوله: "لاننى كنت آنذاك أعيش فى الاتحاد السوفييتى، فى هذا البلد الرهيب، وقمت بتقديم شكوى لا مبرر لها. وانى بفعلتى هذه قد ضللت عدالتكم، وكل ما ترتب على ذلك من نتائج" (سيد دويتشه تسايتونج، ٩، ١٠ أغسطس [آب] ١٩٦٩).

ومن أهم أعمال كوزنيتسوف بعد قصته "استمرار الاسطورة" هى قصة "اوسيبيا روما" (فى البلد)، التى تحكى قصة فتاة اختارت ان تعود الى بلدتها لتعمل بها بعد ان اتمت دراستها الثانوية فى المدينة. وكانت مدفوعة بحسن النية، ولكنها ما ان تفعل ذلك حتى تصدمها الحقيقة التى لم تكن تعرفها عن روح عدم الثقة بل والبغضاء التى تملأ جو الحياة فى المزارع الجماعية، وجهل المتصرفين فى الامور وما الى ذلك (مجموعة المختارات من الأعمال الرومانسية الثورية لمؤلفين سوفييت فى خمس مجلدات، المجلد ٣، موسكو، ١٩٦٢).

والملاحظ فى روايات كوزنيتسوف انها ذات طابع "تسجيلى" فافكاره وأبطال رواياته ليست وليدة الخيال المطلق لفنان، ولكنها مأخوذه من واقع الحياة وحقائقها. ولا شك ان أكبر أعمال كوزنيتسوف هى قصته "بابى يار" التى نشرتها صحيفة "يونوست" (١٩٦٦، الأعداد ٨، ٩، ١٠). وهى أيضاً ذات طابع تسجيلى، وتدور القصة حول مذبحة النازيين لليهود فى كييف عام ١٩٤١، والظروف التى أحاطت بعائلته وأقاربه وأصدقائه أيام الاحتلال الألمانى لاوكرانيا خلال الحرب العالمية الثانية. ولكن القصة تحتوى على بعض المبالغة فى تصوير الأحداث وتفتقر الى الموضوعية، ولقد قال المؤلف نفسه عنها: "يوجد تحيز... وتحيزى هذا يرجع الى كراهيتى للفاشية فى كل أشكالها" (يونوست، العدد ٩، ١٩٦٦، صفحة ٣٥).

ويتحدث كوزنيتسوف عن الضغوط التى أجبرته على اتخاذ قراره الجرىء بعدم العودة للاتحاد السوفييتى، وعن رسائل بعث بها الى اللجنة المركزية للحزب والى الحكومة السوفييتية والى اتحاد الكتاب، بعد ان نفذ قراره. وكان الدافع الرئيسى وراء قراره "الرقابة الفظة"

التى صارت مؤخراً شيئاً لا يحتمل، والتى تخنق حرية القلم خنقاً، ثم هى تهدف الى القضاء على أى امكان لعمل "متمرد"، وهو أى شىء لا يكون مطابقاً "لنماذج" الحزب.

وكان التدخل المسلح فى تشيكوسلوفاكيا بقيادة السوفييت، هو السبب الرئيسى الثانى لقراره بالبقاء فى الغرب. وهذه لم تكن المرة الأولى التى عبر فيها عن سخطه على استخدام القوة المسلحة لامتهان أرادة أمة بأسرها وكبت رغبتها وحقها فى الحرية.

ومما لا شك فيه ان قرار كوزنيتسوف هذا، كان مصحوباً بالكثير من المخاطرة والتضحية بفقده لعائلته وتخليه عن وطنه. بجانب أنه من الصعوبة التكهن بمستقبله الأدبى فى الظروف الجديدة وفى البيئة الغريبة عليه. ولكنه اختار الحرية وفضلها على كل ما عداها.

•

حيرة دعاة الالحاد أمام دلائل عودة الدين فى الاتحاد السوفييتى

يزداد اقتناع النظريين فى الحزب الشيوعى السوفييتى يوماً بعد يوم بفشل تلك النظرية التى ظلوا يؤمنون بها طول الخمسين عام الماضية، وهى ان الدين يتحتم عليه ان يتلاشى أمام التربية العالمية والتحول الاشتراكى، لأنه كان دائماً وسيلة للسيطرة على الشعوب وجعلها تعيش فى ظل "الجهل الانسانى" (فوبروسى فيلوسوفى، العدد رقم ٢، ١٩٦٩، ص ٩٧–٩٩). ولقد أثبت الواقع العملى أنه لا التربية الألحادية ولا الضغط على المتدينين وسجنهم وتشريدهم وتوقيع الغرامات المالية عليهم... الخ قد أفلح فى تحقيق أية نتائج كانوا يتوقعونها.

كثر الحديث فى أوائل الستينات من هذا القرن فى الاتحاد السوفييتى عن تضاءل فى عدد المتدينين، وعن انخفاض مستواهم التعليمى والثقافى، وعن قلة الشباب بينهم، الى اخر هذه الادعاءات الباطلة. أما اليوم فاننا نسمع لهجة جديدة، إذ يقال ان الدين قد عاد يجتذب بعضاً من العمال المؤهلين الناضجين، وعدد من شباب المثقفين. وأنه يلاحظ فى الأيام الأخيرة ان قطاعات كبيرة من الشعب السوفييتى ومنهم أعضاءاً فى الكومسومول

وفى الحزب باتت تهتم بالدين وترقب الأعياد والمناسبات الدينية، بل وتشارك فى اقامة شعائر الدين، ومنهم من يعمدون أبناءهم (سوفيتسكايا روسيا، ٢١ مارس [آذار] ١٩٦٨).

وبرغم ان لينين كان قد نجح فى الماضى فى اثارة الجماهير ضد الكنيسة، وتحريضها على انتهاك حرمات أماكن العبادة وتحطيم الايقونات، فاننا نرى اليوم ان الصورة تختلف كثيراً، فحتى المواطن السوفييتى العادى من أوساط العمال والفلاحين أصبح يرى ذلك التصرف على أنه همجية لا تغتفر، وتشويه للجمال لا معنى له (ا. جونتشار، فيتشيزنا، العدد رقم ١، ١٩٦٨، ص ٨٩).

وفى مقالة للكاتب ا. سمرنوف نشرتها "فويدوسى نوتشنوجو اتيزما" (قضايا الالحاد العلمى) الصادرة فى موسكو، ١٩٦٨، يقول الكاتب: "فى الوقت الحاضر، أصبح التعميد واحداً من أكثر الشعائر انتشاراً فى الكنيسة الأرثوذكسية (ص ٨٦). . . . وان المستوى التعليمى للاباء الذين يقدمون على تعميد ابنائهم يناقض التصريحات الرسمية التى تقول ان غالبية المؤمنين ذوى ثقافة محدودة بينما ٦٩,٩ بالمئة منهم قد بلغوا أو أتموا مرحلة الدراسة الثانوية".

وفى كتيب وضعه المؤرخان السوفييتيان ب. ف. فاسيلييف و ف. ف. نيكيتين سمياه "ضد سعادة وهمية" ونشر فى لنينجراد عام ١٩٦٨، يتحدث الكاتبان عن ان الشباب لم يعد يخفى إيمانه الدينى، وأنه أصبح الآن يجاهر بعقيدته، بل وانتقل الى تفنيد نظرية الالحاد علناً. . . . وان معظم القساوسة السوفييت الآن أشخاص مثقفون ولا تتناقض مواعظهم مع العلم. ثم يحذران من انه إذا لم يأخذ دعاة الألحاد فى حسابهم هذه الحقائق، فانهم سوف يواجهون فشلا ذريعاً لجهودهم. ثم يلاحظ المؤلفان ان الشباب أصبح له نظرته الخاصة فيما يدرسه من علوم (ص ١٩)، فالشباب يقسمونها الى قسمين: علوم "حقيقة"، وعلوم "زائفة". والنوع الأول يضم العلوم الطبيعية أما النوع الثانى فيقصدنون به العلوم الانسانية. والشباب المؤمن بالدين يقبل بما هو حقيقة تاريخية منها فقط (ص ٢٠). ويرفض دروس "المادية الجدلية" و "الالحاد الماركسى" لأنها دروس خاطئة مغلطة.

وأمام جميع الدلائل التى تشير الى ان الدين قد عاد يحتل مكانه بين جميع قطاعات الشعب السوفييتى، مبطلا كل ادعاء بصلة الايمان بالجهل والاعتقاد فى الخرافات، أضطر النظريون السوفييت الى البحث عن تفسيرات أخرى لهذه الظاهرة. والنظرية الحالية تعزو عودة الدين الى أسباب قائمة فى المجتمع السوفييتى نفسه. وفى مقالة بعنوان

"الوظيفة الاجتماعية للدين ومستقبله" (نشرت فى مجلة "فوبروسى فيلوسوفى" العدد رقم ٢، ١٩٦٩)، يقول الكاتب ان الدين فى الدول الاشتراكية، قد جرد من دعاماته المادية ومن "احتكاره للثقافة"، مع أنه يستمر فى الوجود تحت ظروف غريبة على أيديولوجيته. وهكذا فانه يكون قد فقد وظائفه الأساسية فى تنظيم وتوجيه الحياة الاجتماعية، وهى التى كانت مهمته منذ فجر التاريخ. ثم يقول ان الدين سيبقى يتمتع ببعض الجاذبية فى حدود التفكير العامى وفى حياة الفرد الخاصة، حتى فى مجتمع اشتراكى (ص ١٠٦).

ومع ان الحزب يحاول تجديد جهوده فى المجال الأيديولوجى، فان الصحافة السوفييتية لا تخفى الحقيقة ان الدعايات المعادية للدين تلاقى صعاباً أكيدة وان تأثيرها لا يذكر. هذا بينما القساوسة وأعضاء الكنيسة العاملين وغيرهم من الجماعات الدينية يمارسون نشاطهم مع المؤمنين وغير المؤمنين بسواء، وبدأوا يؤتون ثمارهم مع غير المؤمنين، بل وبدأت العلاقات بين المؤمنين والملحدين فى بعض المناطق، تأخذ شكل "التعايش السلمى"، وهو ما يثير غضب وانتقاض القادة السوفييت.

•

البيروقراطية السوفييتية تعوق الاصلاح الاقتصادى

اشتمل النظام الجديد الذى وضع لادارة المصانع على منح مديرى المشروعات الصناعية حرية أكبر فى التصرف، وتخصيص الاعتمادات التشجيعية، بهدف رفع انتاجية العمل وخفض تكاليف الانتاج. وحتى بداية عام ١٩٦٩ كان عدد المشروعات التى تسير وفقاً لهذا النظام ٢٦٠٠ مشروعاً صناعياً يعمل بها حوالى ٧٤ بالمئة من مجموع القوى العاملة فى القطاع الصناعى فى الاتحاد السوفييتى (اكونوميشيسكايا جازيتا، رقم ١، يناير [كانون الثانى] ١٩٦٩).

وثار خلاف شديد فى الرأى حول هذه الاصلاحات، وواجهت معارضة شديدة من كل جانب. ففريق يسارى يعارضها لأنها فى رأيه تنتهك مبادىء الشيوعية لأخذها ببعض أساليب الاقتصاد الحر، وفريق يمينى يرى أنها غير كافية وانها من باب أنصاف الحلول.

ورد الأكاديمى اوسترو فيتيانوف على فريق اليساريين فى مقالة بعنوان " نظرية الانتاج التجارى" (فوبروسى اكونوميكى، رقم ١، ١٩٦٩) بقوله ان لينين الذى كان يأمل فى وقت ما ان يستغنى عن النقد بالمقايضة فى قطاعى الزراعة والصناعة، كان مضطراً لأن يعلن فى أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٢١، ان المقايضة كانت نظاماً فاشلا. وان لينين تناول موضوع ادارة الأعمال الصناعية فى مقالته فى الذكرى السنوية الرابعة للثورة، قال: " يجب ان يوجه الجهد من البداية لبناء جسور متينة تؤدى. . . من خلال رأسمالية الدولة الى الاشتراكية " (نفس المرجع السابق).

ورد ستروميلين على فريق اليمنيين الذين ينادون بأن أفضل وسيلة لتحقيق كفاية المشروعات الصناعية هى تحقيق مستوى عال من الربح، بقوله ان رفع الربح الى أقصى حد، يعنى فى مضمونه أيضاً خفض الأجور الى أقل حد. ونسى أنه فى الدول الرأسمالية الحديثة قد تحقق مستوى عال من الربح مع ارتفاع هائل فى الأجور.

وبغض النظر عما أثارته تلك الاصلاحات من زوابع فى محيط النظريين، فانها برغم ما وفرته من الناحية الشكلية من تبسيط لنظام ادارة الأعمال فى الصناعة، فانها قد صحبها مزيد من التعقيدات العملية، عجز الجهاز الادارى السوفييتى عن ايجاد حلول لها. فقد سمحت هذه الاصلاحات ببعض السلطة لمديرى المشروعات الصناعية فى التخطيط والتنفيذ، وأخذت الى حد ما بنظام العلاقات النقدية التجارية، وعلاقات التسويق بما فيها قانون العرض والطلب، فى حين ان أجهزة التخطيط والادارة والتنسيق المركزية قد احتفظت بالسلطة العليا، مما أدى الى نشوء تعقيدات لا يمكن عدها للربط بين تلك المشروعات والأجهزة المركزية وعلاقات التسويق. فزاد حجم العمل المكتبى والادارى الذى تتحمله الأجهزة الادارية بشكل كبير، وحاولوا مواجهة هذه الزيادة فى حجم العمل بزيادة عدد الموظفين الاداريين، ولكن ذلك لم يكن حلا للمشكلة لأنه لا يقضى على أسبابها.

ويقول س. انوفرينيكو فى مقاله بعنوان " الاصلاح الاقتصادى وتسيير المشروعات" (فوبروسى اكونوميكى، رقم ١٢، ١٩٦٨): " ان التضخم فى حجم البيانات والمعلومات، والتزايد فى كمية العمل المكتبى يسير بنا فى الاتجاه العكسى. فالمخططين مثقلين بالحسابات الميكانيكية، والوقت الذى يمكن الاستفادة منه فى العمل التفصيلى، يصبح نادراً على الدوام".

وأخيراً فان تفاؤل المسئولين السوفييت بشأن الاصلاحات الاقتصادية، ليس له ما يبرره. فان انصاف الحلول التى اتخذت لن تستطيع القضاء على عيوب المركزية الستالينية،

بل انها تلقى فى طريق النظام الاقتصادى السوفييتى بتعقيدات ومشاكل أكثر جديدة. فالقادة السوفييت لن يساوموا على المبدأ الأساسى للنظام السوفييتى وهو التخطيط الحكومى، ولا هم عازفون عن مبدأ "الملكية العامة" لوسائل الانتاج، أو تحويلها الى ملكية جماعية أو تعاونية. ثم ان الجهاز الادارى السوفييتى من مستوى الوزارة الى المصنع، برغم تزويده بالأجهزة الحديثة والعقول الألكترونية، سيبقى عاجزاً عن التوجيه السليم لانشطة ما يزيد عن ١١٠ آلاف وحدة انتاجية فى الصناعة والزراعة فى الاتحاد السوفييتى، بخلاف المؤسسات التجارية ومؤسسات النقل.

•

الكوميكون فى مفترق الطرق

شهد النصف الأول من عام ١٩٦٩ نشاطاً ملحوظاً داخل الكوميكون (مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة — لدول أوروبا الشرقية، وهو المثيل للسوق الأوروبية المشتركة — لدول أوروبا الغربية)، وتمثل ذلك النشاط فى عدد من الاجتماعات للمجلس واللجان المتفرعة عنه لمعالجة مختلف المسائل الصناعية والزراعية والتجارية والمالية. وكان أبرز هذه الاجتماعات أثنين: أولهما، المؤتمر الثانى والعشرين "الروتينى" للكوميكون فى برلين الشرقية فى ٢١—٢٣ يناير (كانون الثانى) ١٩٦٩، ثم المؤتمر الثالث والعشرين "الغير عادى" فى موسكو فى ٢٣—٢٦ فبراير (شباط) ١٩٦٩. ولم يكن ذلك النشاط فى حقيقته ثمرة تقدم ونجاح للكوميكون، فهو لا يزيد عن كونه محاولة لمعالجة أزمة طالت دون سبيل لحل لها.

ولم يكن خبراء الاقتصاد فى الغرب وحدهم الذين أشاروا الى سيطرة الاتحاد السوفييتى على الكوميكون وتوجيهه لخدمة مصالحه الاقتصادية والسياسية، على حساب الدول الأخرى، فان الهجوم الصينى عليه قد فاق النقد الغربى بمراحل. فقد وصفه الصينيون بقولهم: "الكوميكون... هو الاداة الطيعة فى يد الرجعيين السوفييت التى ينفذ بها سياسة الاستعمار الجديد. والرجعيون السوفييت يضمنون لأنفسهم أرباحاً باهظة من خلال التصدير بأسعار عالية والاستيراد بأسعار رخيصة" (بكينج روندشاو، ١٨ فبراير [شباط] ١٩٦٩).

ونتيجة للملاحظات التى أبداها الاقتصاديون الغربيون والصينيون عن الكوميكون، يحاول خبراء الكوميكون ايجاد حلول لما يواجهه من صعوبات. فمنهم من يتشددون فى مواقفهم السابقة، ومنهم من يرى انه "ان لم تحدث زيادة فى حجم التعاون الاقتصادى مع الغرب، فان الكوميكون سوف يستمر فى التدهور" (فولكس تسايتونغ، براغ، ٢ أغسطس [آب] ١٩٦٩). وبالفعل أخذت بعض دول الكوميكون تتصرف بمفردها فى هذا الاتجاه، فزادت تشيكوسلوفاكيا من حجم وارداتها من الدول الرأسمالية فى عام ١٩٦٨ بمعدل ١٦,٤ بالمئة عما كانت عليه فى عام ١٩٦٧. وكذلك بولندا بمعدل ٦,٧ بالمئة فى السنة نفسها. وقام الاتحاد السوفييتى يتهم هذه الاتجاهات الاقتصادية الاصلاحية بأنها "تحطم لآمال وتطلعات المنادين بالتقارب من أجل سياسة شرقية جديدة" (نويس دويتشلاند، برلين الشرقية، ٢٩ اكتوبر [تشرين الأول] ١٩٦٩).

ولكن لم يؤدى موقف الاتحاد السوفييتى، ولا حتى غزوه لتشيكوسلوفاكيا، من منع خبراء الاقتصاد فى دول الكوميكون الأخرى من الاستمرار فى التنبيه الى تخلف دولهم عن دول السوق الأوروبية المشتركة. وتقدم الاقتصاديون المجريون والبولنديون باصلاحات نوقشت قبل المؤتمر الثالث والعشرين "الغير عادى" للكوميكون بعدة شهور، وكانت جميعها تهدف الى تحقيق التكامل الاقتصادى بين فروع الصناعة ومؤسسات التجارة والتسويق فى نفس التخصيص. وربما يكون لهذه الاصلاحات المقترحة تأثيرها فى احداث تغيرات هامة فى المستقبل لو تمت الموافقة عليها. اما اذا لم تتم الموافقة عليها، فان ذلك سيكون بسبب معارضة أعضاء معينين فى الكوميكون يسعون لتحقيق استقلالهم الاقتصادى والتحرر من الضغط السوفييتى، ثم بسبب التباين الكبير بين مستويات التطور الاقتصادى لتلك الدول.

وتنادى موسكو بأن مؤتمر القمة لدول الكوميكون فى ابريل (نيسان) ١٩٦٩ قد "زاد من قوة وسلطان النظام الاشتراكى" (برافدا، ٢٧ ابريل [نيسان] ١٩٦٩)، وقد يكون هذا القول صحيحاً فى بعض الجوانب، ولكن التقارير التى عرضت فى المؤتمر تقرر أنه لم تحدث أى تقدم يذكر نحو التكامل الاقتصادى. وانتهى بدون اتخاذ أى قرارات من شأنها تعزيز السيادة الاقتصادية الأقليمية للدول الأعضاء.

ومما ينبغى ذكره، ان السياسة السوفييتية الحالية تجاه الكوميكون، ترسمها الصعوبات الداخلية فى الاقتصاد السوفييتى، ورغبة القادة السوفييت فى دعمه (الاقتصاد السوفييتى) على حساب دول الكوميكون، وحرصهم على الحصول على أكبر فائدة ممكنة منها، بالاضافة الى مرامى الاتحاد السوفييتى السياسية من وراء ذلك كله.

•

"مؤتمر الوحدة" يؤكد المنازعات بين الشيوعيين

عقد مؤتمر شيوعى عالمى فى موسكو فى ٥–١٧ يونيه (حزيران) ١٩٦٩ سمى بمؤتمر "الوحدة"، وحضره ممثلون عن ٧٥ حزب شيوعى وعمالى من مختلف أنحاء العالم. وقد أرادوا من هذا المؤتمر أظهار تضامن الشيوعين فى العالم ضد "الامبريالية". ولكن رغبة موسكو الخافية كانت محاولة ترميم نفوذها داخل الحركة الشيوعية الدولية الذى أصابه احتلال تشيكوسلوفاكيا بتصدع مدمر، ومن ناحية أخرى استجداء التأييد من الأحزاب الشيوعية فى العالم ضد قادة الحزب الشيوعى الصينى.

فقد حاول الوفد السوفييتى ان يفرض صيغة معينة على "التقرير الرئيسى" للمؤتمر (البيان الختامى الذى يحوى قرارات وتوصيات المؤتمر النهائية) — ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل أمام مواقف الأحزاب الشيوعية المختلفة. فقد جاء فى صيغة التقرير الذى اقترحه السوفييت ما نصه: "كل حزب شيوعى يكون مسئولا عن نشاطه أمام طبقته العاملة وأمته، وفى نفس الوقت، أمام الطبقة العاملة الدولية. فالمسئولية الوطنية والمسئولية الدولية لكل حزب شيوعى وعمالى لا تقبل التجزئة" (برافدا، ١٨ يونيه [حزيران] ١٩٦٩). ولكن الوفود أصرت على اضافة الفقرة التالية إليها: "يؤكد المشتركون فى المؤتمر على موقفهم المشترك فى ان مبادىء 'الدولية البروليتارية' فى التضامن والتأييد المتبادل، مع مراعاة الاستقلال والمساواة فى الحقوق وعدم التدخل فى الشئون الداخلية للآخرين، هى الأسس التى تقوم عليها العلاقات المتبادلة بين الأحزاب الشقيقة" (نفس المرجع السابق). وعلاقة هذا باحتلال تشيكوسلوفاكيا واضحة.

ورفض المؤتمر ان يتضمن "التقرير الرئيسى" أى نوع من اللوم لقادة الحزب الشيوعى الصينى ولسياسة ماو. بل على العكس من رغبة السوفييت فقد أضافوا الى التقرير: "ان المشتركين فى المؤتمر يؤيدون جميع الأحزاب الشيوعية فى العالم بدون استثناء. وعدم اشتراك احزاب شيوعية معينة لا ينبغى ان يؤثر فى الروابط الآخوية والتعاون الاخوى بين جميع الأحزاب الشيوعية والعمالية بدون استثناء" (نفس المرجع السابق).

ومع ان القادة الشيوعيين السوفييت لم يستطيعوا ان يحققوا مآربهم وفشلوا فى ان يصدر "التقرير الرئيسى" للمؤتمر حسب هواهم، فقد تعرض هذا التقرير للكثير من الانتقادات القوية داخل المؤتمر. وكان رأى مندوب الحزب الشيوعى فى الدومينيكان انه: "يخفى

حقيقة العلاقات داخل المعسكر الاشتراكى ويقصف السياسة الوطنية لعديد من الأحزاب الاشتراكية، وهذا ما لا نشارك فيه" (نفس المرجع السابق). وكذلك مندوب الحزب الشيوعى فى دى اونيون الذى ندد بالتقرير لأنه: "لا يكشف عن أسباب المتناقضات فى الحركة الشيوعية الدولية" (نفس المرجع السابق). ثم سكرتير الحزب الشيوعى فى استراليا الذى وصفه بأنه: "يحوى تحليلات متناقضة للنظام الامبريالى العالمى وللحالة الدولية الراهنة" (نفس المرجع السابق). وبالاضافة الى العدد الكبير من الوفود التى أظهرت عدم رضاها عن ذلك التقرير، فهناك خمسة وفود لم توقعه وعدد كبير كان له تحفظات على فقرات معينة منه.

والى جوار هذا، فان المؤتمر لم يكن يمثل جميع الشيوعيين فى العالم تمثيلا صادقاً، فقد قاطعه مثل عدد المشتركين فيه ومثل بعض الأحزاب شخصيات من الصف الثانى. ويكفى ان شخصيات مثل ماوتسى تونج، وهو تشى منه، وفيدل كاسترو، وتيتو لم تحضر المؤتمر حتى تزول عنه الصفة التى حاولوا الصاقها به، بأنه اظهار لتضامن الشيوعيين فى العالم.

ARABIC REVIEW

No. 25, 1970

CONTENTS

Stalin—Monster or Functionary 3
By H. AKHMINOV

A New Interpretation of Peaceful Coexistence 21
By P. KRUZHIN

The Background to the Ouster of Three Union-Republic Party Leaders ... 26
By S. TEKINER

Soviet Writers in the Struggle for Intellectual Freedom 38
By YURI MARIN

Analysis of Important Developments in the Soviet Union 51

الآراء المنشورة فى المجلة هى آراء كتابها ولا يجوز اعتبارها بأى شكل
كان عقيدة سياسية أو وجهة نظر المعهد

المواد المنشورة هنا يمكن اعادة طبعها أو اقتباسها بشرط الاشارة الى مصدرها